السماء السوداء

قصص
محمود السعدني

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

السماء السوداء

محمود السعدني

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٧

الإهداء

إلى الأجيال السعيدة المقبلة

محمود السعدني

سبعة أعوام طويلة ، والمعلم محفوظ بلا شغلانة .. صحيح انه لا يجيد صنعة ولكنه خبير فى الحياة .. والسنوات السبع الماضية قضاها كلها على مقهى الأمير بالقلعة يتفرس ل وجوه الناس ويدقق النظر فى ملامحهم .. وصحيح أيضا انه قضى فترة فى فجر صباه فى دكان نجار ولكنه لم يفهم من سر الحرفة شيئا .. حادث واحد فقط كان يذكره دواما وهو جالس على المقهى كل مساء جعله سعيدا رغم البطالة والفشل .

فقد كان محفوظ ـ ولم يكن قد اصبح معلما بعد ـ ينشر جذع شجرة بلوط ضخمة ، وفجأة بعد ان انشق الجذع الى نصفين رأى بعينيه ـ هكذا يزعم ـ دودة طويلة رفيعة وبجوارها خبز وماء .. وكان دائما يذكر القصة ليدعم بها رأيه ، وهو ان الله لا ينسى احدا ، حتى الدودة الصغيرة الحقيرة فى جذع الشجرة !!

ولكن لماذا لم يرزقه الله كما فعل مع الدودة داخل الشجرة .. فهذا يرجع لحكمة يعلمها الله وحده ، ولم يجهد المعلم محفوظ نفسه ابدا فى تفهم هذه الحكمة او معرفة دوافعها .. المهم ان حكمة الله شاءت ان تقع الحرب فجأة .. وبدا الصراع رهيبا فى اوروبا ، واتخذ هذا الصراع الرهيب له فى مصر مظهرا بسيطا عبارة عن مكتب صغير فى شبرا يديره ضباط انجليز ويقبل عمالا من مصر وبأجور خيالية .

وخطف المعلم محفوظ رجله الى مكتب شبرا ووقف ساعة تحت الشمس . ضمن طابور طويل من الرجال ، خيل اليه فى بادىء الأمر انه لن ينتهى .. ولكن شاءت كلمة الله الا ينصرم النهار الا وقد استطاع ان يقيد اسمه .. وعندما سأله الضابط الانجليزى الذى يتكلم عربية ركيكة عن مهنته ، اجابه دون وعى .. نجار .. هو نفسه لم يدر بعد ان غادر المكتب ، لماذا اختار هذه المهنة بالذات .

وجاءه الخطاب على عجل ليتسلم العمل ، نجار فى معسكرات العباسية واجره جنيه فى اليوم ..

شغلة عظيمة وربح وفير .. والسبب الحرب ! بارك الله فى الحرب .. لو انها وقعت منذ سبعة أعوام مضت لما تذوق المعلم محفوظ مرارة البطالة ونظرات الناس الشامتة ، ولكنها كلمة الله شاءت ثم عدلت مشيئتها .. وقد آن الأوان لكى يعمل المعلم محفوظ ويربح مثل بقية خلق الله .

ومضت ايام الاسبوع الأول رتيبة والمعلم محفوظ يرسم بسذاجة خطوط المستقبل .. انه يستطيع ان يوفر مبلغا من المال وان يفتح ورشة .. او يفتح مقهى ، يضمن له معاشا ثابتا .. عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب .

ولكن مضى شهر ، ثم مضى عام ، ثم عامان .. والمعلم محفوظ لم يدخر قرشا .. وعرفت قدماه الطريق الى البارات والملاهى ودور الرقص — الى الحياة الصاخبة الحافلة التى حرم منها طويلا .. واصبح للمعلم محفوظ احتياجات لم يكن فى حاجة اليها من قبل . والجنيه لم يعد يكفيه .. ولسانه الذى اخذ « يرطن » بكلمات انجليزية اصبح قادرا على التفاهم اكثر من ذى قبل .

ووقع المعلم محفوظ فى مشكلة جديدة ، ولكنها سرعان ما اندثرت .. هكذا قضت مشيئة الله !!

انتقلت الحرب الى الصحراء الغربية .. ولم تعد اوروبا تشهد اى نوع من الصراع ، فقد انطوت كلها مستسلمة .. وعبر الالمان البحر الى تونس ليخوضوا الصراع على رمال صحراء افريقيا الميتة ..

وهبط الفرج على المعلم محفوظ عندما ساومه الانجليز ليذهب الى طبرق .. ومضاعفة الأجر مرتين .. ولم يناقش المعلم محفوظ بل ركب اللورى مع « شحنة » من الرجال ومضى بهم جميعا الى طبرق .. ومضت ايام طويلة وهو محبوس كالفأر داخل المدينة يعمل ويقبض ويدخر كثيرا فليس امامه مجال للانفاق .. وعاد من جديد يفكر فى امر الورشة ، او المقهى ، والاستقرار الذى ينشده عندما تقضى مشيئة الله بانتهاء الحرب وينتهى معها كل هذا الثراء .. ولكن تفكيره انقطع فجأة ، فقد استيقظ ذات صباح فاذا بالانجليز هجروا المدينة وقوم جدد يحتلون مرافقها ويحاصرونها بأسنة الحراب .. وامروه بخلع ملابسه وسلموه زيا جديدا ، بنطلونا ازرق وقميصا من نفس القماش واللون .. ولطشوا منه النقود التى ادخرها ، ثم علم بعد ذلك كله انه يتعامل هذه المرة مع جنس آخر .. مع الألمان ..

وامروه ان يعمل ، وعمل طويلا وبجهد اكبر من الجهد الذى كان يقوم به عند الانجليز ، والسبب أن الألمان اكتشفوا السر الذى لم يكتشفه الانجليز طوال اعوام ثلاثة ، وهو ان المعلم محفوظ ليس تجارا ولكنه يصلح ــ وهو القوى كالثور ــ عتالا يحمل البضائع والذخائر على رصيف السكة الحديد . ومر المعلم محفوظ بمحنة .. ولكنها علمته اشياء كثيرة . فالانجليز لا ياكلون عرق الناس .. بينما الألمان يفعلون هذا !! لم يكن المعلم محفوظ قد اكتشف بعد .. انه وقع أسيرا !!

حتى بعد ان اكتشف ذلك لم يستطع ان يجد تفسيرا لعدم منحه اجره عن العمل الذى يقوم به .. انه ليس جنديا حتى ياخذوه أسيرا .. كان يعمل عند الانجليز ، والآن يعمل عند الالمان ، ولكن فرق كبير بين العمل هنا والعمل هناك .. لو ان هؤلاء الألمان فكوا اسره والحقوه بعمل ونقدوه اجره .. اذن لبقى معهم الى الأبد .. فهو لا يعتزم الفرار .. انه فقط يبحث عن عمل .. ولكن هؤلاء الالمان الذين يصرخون دائما لا يفهمون حقيقة موقفه .. لقد وجدوه مع الانجليز فحسبوه معهم .. وهو ليس كذلك على الاطلاق ! .

ولم يكن هناك سبيل للتفاهم مع الالمان .. حتى لو ان هناك سبيلا فلا فائدة ترجى من التفاهم .. واستسلم المعلم محفوظ لمصيره ولم يعد يفكر فى شىء على الاطلاق حتى ولا فى المبلغ الذى لطشوه .

شىء واحد اقلقه .. أين بقية زملائه الذين كانوا معه فى طبرق قبل الغزو ؟ هل استطاعوا الفرار مع الانجليز ؟ ام قتلوا فى المعركة ؟ ام انهم يعملون مع الالمان ولكن فى مكان آخر ؟ وهد الارهاق الشديد كيانه ، واستبد به فنسى كل شىء ما عداه .. اصبح همه كله ان

يطيع الاوامر فلا يضربه الالمان .. فقد تلقى درسا رهيبا عندما سولت له نفسه ان يسال الحارس مرة عما اذا كانوا سينقدونه اجره بعد الحرب ، ويومها ضربه الجندى بمؤخرة البندقية على راسه ففقد وعيه لساعات . ولم يغضبه فى المسالة كلها الا ان الجندى الذى ضربه لا يحتمل لكمة واحدة من قبضة المعلم محفوظ الفولاذية ... فقط لو كان بغير سلاح !

وسرعان ما دارت الايام .. واستيقظ ذات صباح على صوت طلقات تاتى من كل اتجاه .. وازيز طائرات يكاد يصم الآذان ، ورائحة حرائق تشتعل فى كل مكان .. واحس بأن الارض تميد به وانه يفقد بالتدريج توازنه ثم السيطرة على نفسه ، ثم وعيه ..

وعندما استيقظ بعد ذلك بأيام كان سرير فى مستشفى طبرق وبلا ذراع ! واكتشف ان الانجليز قد عادوا الى المدينة وان الألمان هجروها .. ومعهم ذراعه « وعرقه » لمدة شهور قضاها يحمل كل شىء كالثور على رقبته على رصيف السكة الحديد ..

ومضت ايام طويلةوهو راقد على سريره فى المستشفى .. والعنبر الذى يرقد فيه يعج بالجنود الجرحى .. ملفوفين فى الضمادات .. حتى عيونهم نفسها مغلقة تحت اللفافات ، وكثيرا ما سمع صراخا فى جوف الليل .. ثم حركة غريبة ــ وكم شاهد رجلا ممددا على «نقالة» يدفعها انجليزى خارج العنبر ، ووجه الرجل يختفى تحت ملاءة بيضاء .. وكان المعلم محفوظ يرفع اصبعه دائما الى اعلى ويرتل الشهادتين على روح الميت رغم انه انجليزى .. فهو على اية حال غريب فى هذه الصحراء ..

وتم شفاء المعلم محفوظ بعد وقت قصير .. وسلمه الانجليز ملابس جديدة ومائة جنيه ثمن ذراعه المبتورة .. وطلبوا منه ان

يعود .. فلم تعد الحرب فى حاجة اليه بعد أن فقد أهم ما تحتاجه الحرب فيه !!

ولم ينس المعلم محفوظ ان يعد الجنيهات المائة قبل ان يغادر طبرق .. ثم « لفع » الشوال الضخم الذى دس فيه بنطلونى جيش .. وباكوات شاى .. وعدة زجاجات فارغة .. وخرج من طبرق على قدميه .. وحذاؤه الذى كان فى قدمى جندى من قبل ، يضرب فى الرمل فى طريقه الى ربوة موسى حيث تنتظره العربة هناك .

وعندما انحدر المعلم محفوظ ناحيه الربوة قاطعا المنحنى الضيق الذى يفصل طبرق عن الطريق الرئيسى .. لفت نظره ان كل شىء قد تغير فى المكان .. كان الطريق عندما قطعه أول مرة تزينه أشجار السرو العالية .. ومعالم الطريق الدالة عليه .. لقد أصبح الطريق مهجورا ولا أثر لشجرة واحدة .. وثمة فجوات عميقة على الطريق من أثر القنابل تبدو كأنها مقابر مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب .

وعلى امتداد صفحة الصحراء المحيطة بالطريق كان كل شىء يبدو بشعا رهيبا .. عربات مقلوبة وهياكل دبابات محترقة وعظام نخرة أكل الدود ما عليها .. وبقايا جثث ممزقة وخوذات جنود من جميع الأحجام ، استحال لونها الذى كان أصفر الى لون كالح اشبه بلون المياه الراكدة .. والجو يعبق برائحة خبيثة .. ودود كثير يزحف فوق الرمال ، نثرته جثث القتلى فعاد يأكل منها . ووقف المعلم محفوظ برهة ينظر الى كل اتجاه ، آلاف الجثث مطـروحة فى الصحراء .. وكأنها فى انتظار نفير رهيب سيدوى صوته فجاة فى الأفق لترتعش من جديد وقد دبت فيها الحياة !! وبين الجثث كان هناك عدد منها يعرف أصحابها جيدا .. فقد عاشوا معه فترة طويلة داخل طبرق . ظن يوما انهم هربوا من الانجليز .. أو يعملون مع

الألمان فى مكان بعيد .. كانت بقايا ملابسهم تدل عليهم .. واصطرعت بأذنه اصوات مبهمة بشعة اشـبه بنعيق قطيع من البوم فى ليل بهيم ..

وعندما رفع بصره الى أعلا راى السماء وقد اسود لونها تماما ، كانت هناك مظلة من الغربان .. ملايين من الغربان لا يعرف من أين جاءت وكيف جاءت ، تصفق باجنحتها فى الجو .. وهى هابطة نحو الأرض لتلتقط من الجيف المنتشرة على الرمال قطعا ثم تعود الى التحليق من جديد .

واستبد الرعب بنفس المعلم محفوظ .. وامتـلأت نفسه مرارة .. وود لو يستطيع ان يبصق على الألمان والانجليز وسائر الناس .. واختلس نظرة الى كم جلبابه وقد تدلى الى جـواره بلا ذراع ، و « لفع » الشوال الضخم على كتفيه ومضى مسرعا على الطريق نحو ربوة موسى .

وتساءل المعلم محفوظ بينه وبين نفسه وهو يحث الخطى على الرمال : ترى ما هى الحكمة فى نشوب الحرب بين الناس ، ثم ينتهى الجميع الى مجرد عظام ؟ وأجاب على سؤاله بنفسه : قد تكون الحكمة من وراء الحرب هى اطعام هذه الملايين من الغربان !!

ومصمص المعلم محفوظ شفتيه فى أسى عميق وهو يسرع الخطى صاعدا نحو الربوة .. وتذكر فى تلك اللحظة الدودة الرفيعة الطويلة فى جذع الشجرة وأمامها الخبز والماء !!

وعندما تكور حول نفسه بجوار الشـوال فى العربة اللورى ، اختلس النظر نحو السماء .. كانت لا تزال سوداء .. بلون ملايين الغربان التى راحت تصفق باجنحتها وهى تهبط نحو الأرض لتلتقط بمطالبها نتفا من الجيف المنتشرة على صفحة الصحراء !!

كانت **الشمس تلهب رمال الصحراء العريضة المحيطة بالليمان . ولم يكن هناك شجرة واحدة على بعد عدة أميال من مكان السجن .. ولا ثمة طيور شاردة في الجو ، ولا بئر ماء .. ولا أثر اطلاقا للحياة ، لم يكن هناك سوى عدة قبور مهجورة نبشتها الكلاب والذئاب وصقور الجو الجائعة . وكان الطريق من المدينة الى السجن طويلا مرهقا ، والعربة الوحيدة التى صادفها واعظ السجن لتنقله الى هناك ، عربة نقل تستعمل في نقل اللحوم مرة كل أسبوع الى هؤلاء الذين لفظتهم الحياة بعيدا عنها .**

كان الواعظ بدينا قصير القامة ، احمر الوجه ، يبدو للوهلة الاولى كأنه من عمد الريف الاثرياء . وكان حديث المتخرج ، وكانت وظيفة واعظ السجن .. هى اول عمل يقوم به في الحياة .

جلس الواعظ بجوار السائق يفكر فيما [illegible] سيقوله في صباح

الغد للمذنبين من نزلاء الليمان . وتذكر وهو جالس بجوار السائق ، والعربة تهزه هزا عنيفا ــ كل خطب الوعظ التى حفظها عن ظهر قلب ، خطبة رمضان المعظم ، وفيها الحث على الصــوم ومغالبة النفس ، وخطبة الحج .. وفيها المناسك جميعا ، وخطبة رجب وفيها النهى عن زيارة المقابر و .. و .. !!

وابتسم الواعظ فى سرور ، انه لم يزل يحفظ هذا كله ، وفى جعبته عدد لا بأس به من الآيات والاحاديث ..

واستقر فى مقعده مطمئنا الى النجاح الذى سيصادفه غــدا عندما يقف امام حشد المذنبين ليعظهم ويرشدهم الى العمل الطيب الذى يرفعه الله الى سمواته . ودس يده فى جيبه فاخرج منديله الكبير ، وجفف به عرقه الذى ظل يسيل من فوق جبهته فملأ عينيه حتى تعذرت الرؤية عليه . وكان الارهاق الشديد قد نال منه خلال الرحلة فاغمض عينيه وراح فى نوم عميق .

* * *

وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، كانت الشمس قد توسطت الافق ، وحجارة السجن الصماء تكاد تنصهر من شــدة الحرارة ، وكان قد قضى ليلته غارقا فى نوم عميق انســـاه طول الرحلة ، ووعورة الطريق . وعندما فرغ من صلاته جلس يتناول افطاره ، وكان شهيا لذيذا وبكميات ضخمة ، ودهش لوجود مثل هذه الأصناف اللذيذة والكميات الكبيرة داخل الليمان .. لابد انهم سعداء هؤلاء النزلاء ، وهو نفسه عندما كان خارج هذه الجدران ــ فى عالم الحرية ــ ايام ان كان طالبا فى الأزهر .. لم يكن يستطيع الحصول على هذه الكميات ولا هذه الأصناف !

لم يفكر طويلا فى هذا الأمر الذى بدا غريبا فى نظره .. وراح

اثناء تناوله الطعام يفكر فى الخطبة التى اعدها .. والتى يرجو من امامه ان تحوز رضاء مأمور الليمان ، وتجشأ الشيخ عبد الحميد ــ وهذا اسمه ــ وهو يخطو امام الحارس فى طريقه الى مكتب المأمور .. ليتعرف اليه ، اذ لم تكن امامه الفرصة ليقوم بهذا العمل فى مساء الأمس عندما هبط السجن فى عربة اللحوم .

وكان غريبا عليه ايضا هذا الذى صادفه فى شخص المأمور ، فقد كان رجلا بدينا تدل ملامحه الغليظة على الطيبة والهدوء . وكان فوق هذا وذاك مطلعا على كتب النحو والبلاغة ، وآراء الشراح القدامى والمحدثين . وبعد ان انتهى الحديث بينهما حول الفقه والدين . اتخذ المأمور سمت الحاكم وقال مخاطبا الواعظ بعد ان اصلح رباط عنقه :

ــ اننا هنا اسرة واحدة . وانا طيب جدا ، ما دام النظام هنا على اكمل وجه . والرجل الذى يعمل داخل السجن ، هو فى الحقيقة مسجون بملابس عادية ، وستحب مهنتك جدا ما دمت مخلصا لها ، مقبلا عليها ، وارى من واجبى ان اخبرك ان زميلك الذى حللت انت مكانه ظل معنا هنا لمدة طويلة . كان فيها مثالا للكفاية والاخلاص .. ولكنه فجأة نسى أصول مهنته فأخذ يتدخل فيما لا يعنيه . وأصبح هو سببا قويا فى تمرد المذنبين على الأوامر ، فقد كان يتدخل دائما فى طريقة معاملة السجانين للمسجونين . ولكنه نال جزاءه . فقد نقل من هنا الى جهة نائية . فأنا لا أحب شيئا قدر حبى للنظام . وأضحى فى سبيل تدعيمه بأقرب المقربين الى .

تصبب العرق على وجه الشيخ عبد الحميد وهو يستمع الى قصة الواعظ الذى سبقه . وجف حلقه تماما عندما أنهى المأمور قصته بخبر نقله ، واستعاذ برب العباد من شر الشيطان الرجيم ،

ودعا الله سرا ان يوفقه فى عمله . فيعمل آمنا مستقرا ويجمع قدرا من المال ليشترى به قطعة ارض على « حرف » الترعة كما فعل الشيخ رشيد ، والشيخ نعمان ابنا قريته .. وزميلا الدراسة . !

وعندما انتهت المقابلة خرج الشيخ عبد الحميد من مكتب المأمور وهو يتمتم باسم الله ، والحارس يخطو امامه فى الردهة الضيقة الطويلة ليقوده الى الفناء الواسع حيث ينتظره المذنبون منذ ساعة ليستمعوا الى موعظته . وعندما اطل على الفناء كان الحر لا يزال شديدا ، ورأى أكثر من الف مسجون يجلسون القرفصاء على الرمال فى مواجهة منصة صنعت خصيصا لتقى الواعظ من حرارة الصيف فى تلك المنطقة الجافة الحارقة . وحول الجالسين اصطفت فرقة من الجنود المسلحين ، وقد صوبوا اسلحتهم الى القطيع البائس . وكان اللغط يدور شديدا بين الجالسين وكأنهم فى معركة كلامية حادة . ولكنها سرعان ما هدأت تماما عندما اقترب الواعظ من الجمع المحتشد ، وتركزت كل النظرات عليه .. حتى نظرات الحراس ، وأحس الشيخ عبد الحميد بأهميته البالغة ربما للمرة الأولى ، فتحسس جبته ، واصلح من وضع العمامة . وثبت بصره بالأرض وهو يصعد السلالم الخشبية المؤدية الى المنصة . والقى نظرة شاملة على كل من حوله . ثم رفع صوته بالتحية وبدأ يلقى موعظته فى صوت رتيب ونبرات حلوة . ولكن هبت الأصوات من جانب الجالسين :

— هس يا جدع انت وهوه .
— اللى يحب النبى يسكت .
— خلونا نسمع الكلام المفيد .

ويبدو ان احدا منهم لم يكن يحب الاستماع الى الكلام المفيد ، فقد ظلت الضوضاء تتصاعد من حوله ، وكأنه يعظ فى سوق .

ولم يثنه هذا عن التوقف ، فقد كان الموقف يحتاج الى شجاعة .. وهو شجاع ، فواصل حديثه اليهم :

— ايها الناس .. أمرنا الله باتباع طريق الخير .. والبعد عن طريق المعصية ، ومن يعمل منكم مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . نهانا الله عن الخمر .. فلا تقربها .. وعن الميسر فلا تمارسه ، حكمة سماوية .. للبعد عن الخطيئة التى يزينها الشيطان ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . فالخمر تهدم الصحة وتمحو الشخصية . والميسر يهدم بيوتكم الآمنة ويجركم الى الدين والخراب ، فاتقوا الله يا معشر المسلمين تنالوا رضاه !!

وتوقف الشيخ عبد الحميد عن مواصلة حديثه ريثما يجفف عرقه الذى سال من جبينه على عينيه . واحس ارهاقا شديدا .. وصعوبة فى التنفس .. لابد انه اجاد واحسن والا .. لماذا كل هذا الاستغراق حتى لقد نسى نفسه . والقى الشيخ عبد الحميد نظرة على من حوله ليرى وقع حديثه فى نفوس السامعين .. لم يكن هناك من ينظر اليه ، المذنبون يتجادلون فى ضجة .. ربما من اجل عملية بيع وشراء . ولفائف تبغ كثيرة تنتقل من يد الى يد ، واوراق لامعة شفافة تتناولها الايدى لتسلمها الى اخرى . والحراس مستندون الى فوهات بنادقهم ، وعيونهم مغلقة فى اغفاءة لذيذة . وارتبك الشيخ عبد الحميد ولم يدر ماذا يفعل ، انه واثق تماما انه أجاد اختيار موضوع الموعظة ، وصوته جميل حسن ، فلماذا اذن لا يستمع اليه هؤلاء الجهلاء !!

وعاد الشيخ عبد الحميد مواصلا حديثه ، وفى هذه المرة بصوت اشد :

ـ ايها الناس ، ان الله يأمركم بالزكاة .. ففى اموالكم حق للسائل والمحروم . فلا تكنزوا ثرواتكم فتجنبوا حسرة الدنيا .. وعذاب الآخرة ، ولا تبذروا فى اموالكم ، فقد نهى الله عن التبذير .. ان المبذرين اخوان الشيطان . فعلى كل منكم ان يطهر ماله بالزكاة .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا ريثما يلتقط انفاسه ، وعاد من جديد ينظر الى الجمع المحتشد امامه ! كان الجميع مشغولين عنه وعن حديثه بما يبدو انه اهم من ذلك . عمليات بيع وشراء على الطريقة التى كانت سائدة يوما ما قبل ان تخترع النقود . والحراس فى نفس الاغفاءة اللذيذة ، واستبدت الدهشة بالشيخ عبد الحميد كيف لم يستطع التأثير على هؤلاء الناس .. وقد نجح من قبل فى السيطرة على اهل قريته عندما كان يخطب فيهم الجمعة خلال زياراته المتعددة لهم فى فصل الصيف .. وكان لم يزل طالبا .. والآن وهو يعمل كواعظ رسمى لا يستطيع ان يلفت اليه نظر هؤلاء المذنبين . واشتد ارتباك الشيخ عبد الحميد .. وهو لا يدرى تماما ماذا يجب عليه ان يفعل . هل ينسحب ويمشى ؟ ولكن هذه قد تحسب عليه . اذن هل يصرخ فيهم ان انتبهوا أيها الكافرون ؟ .. ام .. وقبل ان يمضى فى تفكيره للعثور على حل لهذه المشكلة . انتبه على صوت اجش يرتفع صائحا :

ـ انتباه .

وعلى الأثر ظهر المأمور وبجانبه كبار الضباط ، وعدد كبير من الحراس ، مقبلين جميعا فى موكب مهيب نحو منصة الشيخ . وانتفض الحراس فى وقت واحد وقد طار النوم من عيونهم . وصمت المذنبون وكأنهم جثث فى مقبرة . وانتفض الشيخ عبد الحميد هو الآخر ؛ فقد اخذته روعة الموكب المهيب . واختلطت فى ذهنه جميع المواعظ التى حفظها عن ظهر قلب طول حياته

الماضية . وارتفع صوته من جديد ، وكان المأمور قد اتخذ له مكانا على مقربة من الحشد الكبير .

ـ ايها الناس ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم .. « وكل عمل ابن آدم لنفسه الا الصيام فهو لى وانا اجزى به » والصيام دواء لمرض التخمة ، ولاشعاركم بما يلقاه المحرومون من اخوانكم فى الانسانية ، فتعطفون عليهم ، وتحسنون اليهم . وترزقونهم مما رزقكم الله .

وتوقف الشيخ عبد الحميد قليلا . كان الصمت لا يزال مخيما على الجميع ، وهم ينصتون فى هدوء ويمصمصون شفاهم فى « طرقعات » مسموعة ، وعيونهم تختلس النظرات الى الناحية التى يقف فيها المأمور . وكان يبدو عليهم التأثر الشديد لما يقوله الشيخ . وكأن افئدتهم قد تفتحت للتوجيه الحكيم الصائب . ورضى الشيخ عبد الحميد عن نفسه كثيرا ، وراح يربت بيده على صدره العريض ، لقد آمن افراد هذا القطيع اخيرا ، آمنوا بالصلاة والصيام والزكاة .. والحج الى بيت الله لمن استطاع اليه سبيلا وغشيت عيناه سحابة من اثر الرضاء وعاد الى حديثه يلقيه فى عزم وقوة . وعيناه لا ترى شيئا امامه سوى الاستقرار الذى سيلقاه فى عمله .. وقطعة الأرض التى سيشتريها بجوار الترعة . ولم لا ؟ وقد ران الصمت على الجميع واستطاع ان يغزو قلوبهم بالايمان ؟ !

أخيرا جاء القطار ، ونهض هريدى عبد العال من مكانه على الرصيف ، ورفع الشوال الهائل الذى يحوى كل ما معه من هدايا لأسرته القابعة فى زاوية مهجورة من زوايا الصعيد . وقذف به داخل القطار ، ورفع ذيل جلبابه بين اسنانه وامسك بنافذة القطار وراح يجرى معه ، وسقطت فردة حذائه الممزق تحت العجلات وخطر له أن يترك القطار ليجرى خلف «الفردة» ولكنه طرد هذا الخاطر بعد أن وجد نفسه فجأة وبطريقة ما داخل القطار ، والشوال الضخم بين يديه يحاول عبثا أن يجد له ولنفسه مكانا بين مئات من أمثاله افترشوا أرضية العربة المظلمة وراحوا يتحدثون ويهرشون غير ملقين بالا الى الذين يدوسون فوقهم بالاقدام .

ووجد هريدى لنفسه مكانا وسط هذا الزحام وفتح الشوال ليرى بنفسه ان الهدايا لم تمس . ولكن الغضب استبد به عندما

اكتشف ان زر الشمام قد أصيب بضربة فى جنبه وان كيس السكر قد انفرط ، وزجاجة المزيج قد سالت فلطخت كل شيء .. وطوى هريدى الشوال ووضعه تحت جنبه عندما بدا القطار يتحرك نحو الصعيد . وخطر له ان ينام ، فان امامه اكثر من عشر ساعات حتى يصل القطار الى طما ، ومن هنا سوف يركب الحازونة الى ميت الحلاجي ، وبعدها يستطيع السير على قدميه الى حيث يشاء .

ولكن حديث المسافرين وهرشهم ونداءات باعة القازوزة واللب والبيض والسميط وكذلك الهدايا التى فى الشوال ، والجنيهات العشرين التى فى جيبه ، كل ذلك طرد النوم عن عينيه ، فظل ساهرا يرقب أعمدة التلغراف وهى تجرى مسرعة فى الطريق المضاد وكأنها اطفال مذعورة تجرى مهرولة فى طلب الأمان .

وغاب هريدى تماما عن كل ما حوله ، وتذكر اليوم الذى جاء فيه الى القاهرة ، أول مرة ، حدث هذا منذ عام . كان الوقت ظهرا والمكان محطة مصر ، والزحام على أشده وعربات كثيرة فى عدد جميع الحازونات التى تمر على ميت الحلاجي فى عام كامل .. تجرى فى كل الاتجاهات ومركبات حديدية تحدث ضجيجا يصم الآذان وباعة شمام وبطيخ وورق ، وخلق كثيرون اكثر من كل الذين يسكنون الصعيد ، ورائحة غير ذكية ، والناس مجهدون صفر الوجوه ، موضى جميعا بالسعال ولكنهم فى ملابس نظيفة واحذية جديدة ، ومع بعضهم نساء بيض جميلات . ونظر هريدى الى قدميه العاريتين المتورمتين وجلبابه الممزق ، وتذكر صابحة زوجته ، وتمنى لو كان له حذاء وجلباب وامراة جميلة مثل هؤلاء الناس . ورفع هريدى الشوال على كتفه وامسك فى يده بورقة مطوية وسار فى الطريق .

وقبل ان يقطع مسافة طويلة استوقف افنديا كان يعبر الميدان مثله ، وابرز له الورقة المطوية فالقى الأفندى نظرة عليها ثم اشار

عليه ان يمضى الى الأمام ثم الى اليمين ثم الى الشمال ثم .. اشياء كثيرة معقدة لم يفهم هريدى منها حرفا ، حتى الورقة التى تحمل العنوان لم يحصل عليها هريدى فقد اخذها الأفندى وجرى فجاة وبأقصى سرعة خلف حلزونة ضخمة كانت تجرى مسرعة ولم يلبث ان اصبح الأفندى داخلها ، وغابت العربة مع العنوان عن الأنظار .

وهكذا عثر هريدى على الشيخ احمد مروان متعهد الأنفار بعد اربعة ايام ، قضى ثلاثة منها فى قسم الموسكى .. ولم يدر هريدى السبب فى هذا ، كما انه لم يدر ايضا السبب فى انهم تركوه ، المهم انهم عندما اخذوه سألوه عن اسمه ومقر اقامته وصناعته ، وكان هريدى صادقا فلم يذكر سوى انه يملك جسما قويا كالثور يستطيع ان يهدم به حائطا ، او يجر به حلزونة ، أو يصرع به رجلا من رجال المدينة الصفر الوجوه .

واهتز القطار فجأة ، وكانت الهزة قوية أيقظت هريدى من احلامه ودفعت بكثير من الجالسين الى الوقوف ليروا من النوافذ حقيقة الامر ، وهتف بعضهم : تصليح .. فيه تصليح فى السكة ..

وهتف البعض الآخر :

ـ يا مستعجل عطلك الله .

ثم خيم الهدوء من جديد .. وتوقف القطار قليلا قبل ان يسير وعاد هريدى يذكر تلك الأيام منذ عام كيف انه ظل عاطلا بلا عمل مدة اسابيع . ثم اخذه المعلم مروان ليعمل فى عمارة ، وكان العمل سهلا ، يحمل على كتفه خمسين طوبة ويصعد بها على سقالة وثبا كالبهلوانات الى الدور الخامس ثم يعود ، وعند كل مساء كانوا ينقدونه ريالا كاملا وصرف هريدى الريال فى اليوم الأول ، وفى اليوم الثانى وبقية ايام الأسبوع وعندما اخذ يقتصد توقف العمل

فى العمارة ، ولم يعد البناء فى حاجة الى مزيد من الطوب . وهكذا مضت أسابيع اخرى وهو بلا عمل واحيانا بلا طعام ، اما المأوى فمضمون ، فى الساحة التى يملكها المعلم مروان فى حضن الجبل عند الدراسة ، وهكذا عرف هريدى الدراسة والأزهر والعباسية ايضا حيث كان يعمل فى العمارة ، وعرف كثيرا من بلدياته فى المقهى التى يجتمعون بها كل مساء يدخنون المعسل ويشربون اقداح الشاى الأسود .. ويلعبون الطاولة . واحيانا يأكلون العيش القمح مع الفول . ودخل هريدى فى عمل جديد وخرج منه الى عمل آخر ، وفى كل يوم تنشق الأرض عن عمارة ضخمة ، ثم تنتهى لتقوم بجوارها او فى حى آخر بعيد عمارة مثلها وهريدى يحمل الطوب على كتفه ويغنى وهو يتأرجح على السقالة ويشرب اكواب الشاى فى فترة الغداء ، وينام فى الليل على الرملة ، كم هى باردة لذيذة فى الليالى الحارة اعظم بكثير من الأرض الساخنة الصلبة التى كان يفترشها فى الصعيد .

وتنهد هريدى فى عمق ، وهو يسترجع فى ذاكرته تلك الليالى البعيدة ، وارتجف بدنه كله عندما تذكر .. كيف خطر له ذات مساء وهو جالس على الرمل أن يترك زوجته واسرته الى الأبد وان يخلص رقبته من تلك العلاقة التى تجعله يدور مجهدا حول نفسه كالثور الكبير .. وتذكر كيف استبد به هذا الخاطر حتى اقلقه ، وكيف استقر رايه ذات مساء ، وهو يجلس وحيدا على الرملة واصابعه تعبث فى بطن الكثيب البارد على الا يعود الى الصعيد ، اف لهذه الحياة التى يعيشها الناس هناك ، حيث الظلام والنساء اللاتى فى شكل غربان الجو ، والعيش الذى ينافس الطوب ، اما هو ففى مصر .. ام المدائن كلها .. هنا الفول المدمس بكثرة والعيش لين يبتلعه الناس بسهولة ، وشوارع نظيفة ونقود ، الناس هنا يختلفون

عن الناس فى قريته بهادة ، وفى ميت الحلاجى ، وفى طما .. هنا الناس يبدون اكثر بهجة واشد نظافة واصواتهم اكثر رقة وجيوبهم عامرة .

وعجب هريدى ليلتها لان الناس هنا اشد غفلة من الذين هناك ، انهم هنا يقطعون الوقت فيما لا فائدة فيه ، انهم يذهبون الى الخلاء ، والى الملاهى والى النهر . وهو لا يعرف طعما لهذا كله . ولو ان الناس هنا اصحاب فطنة حقا لقضوا الوقت كله فى الاكل ! الاكل هنا متوفر والناس لا يعرفون قيمته ، ولو ان كل هذه الكميات الضخمة من الفول والطعمية والباذنجان المخلل فى الصعيد لاتى الناس عليها فى لحظة ، ولكنه احيانا يرى اصحاب الدكاكين وهم يلقون بعض فضلات هذه الأشياء فى الطريق .

واهتز القطار من جديد ، وتمهل فى سيره قليلا ووقف بعض الركاب ووقع البعض الآخر ، وجرى بعضهم نحو النافذة ، وهتفوا . المنيا . وداس النازلون والصاعدون على الجالسين ، وتململ رجل كان يفترش الأرض بجوار هريدى وأبدى تبرمه من هذا الحذاء الضخم القذر الذى انحشر فى فمه ، وصاح رجل عجوز كان يتمدد تحت كرسى : ــ استحملوا بعض يا خلايق . دى كلها ساعتين والعمر كله يومين .

ومصمص بعض الجالسين شفاهم فى اعجاب ، وهتف احدهم :

ــ ربنا يفوتها على خير .

وتحرك القطار من جديد فى طريقه الى اسيوط ، وعاد هريدى الى ذكرياته فى مصر ، الى هذا الخاطر الغريب الذى استبد به بعض الوقت فى ضرورة هجر أسرته وزوجته ، والصعيد كله ، ثم تذكر ما حدث بعد ذلك . وكان قد بدد كل ما اقتصده ، ولماذا يقتصد ،

انه الآن ينوى أن يفعل ذلك . ولكن خاطرا ملحا ظل يطرق خلايا مخه بانتظام وفى قسوة شديدة وجوع مسعور نحو المراة ياكل كيانه ويكاد يحيله الى شعلة .

وهمس ليلتها فى اذن بلال ، الصعيدى الزنجى الذى جاء الى مصر منذ خمسة اعوام ، همس له برغبته الجنونية ، انه لم يكن يحس هذا الاحساس من قبل فى الصعيد ، ربما لأن زوجته كانت فى شكل الغراب ، عجفاء مثل عود الحطب ، وربما هو الطعام اللذيذ الذى حرك فى نفسه هذا الغول الرهيب .. وقاده بلال فى ذلك الصباح الى الجبل بجوار المشرحة ، حيث بعض النساء المتملئات الملطخات الوجوه بكل ما فى الوجود من هوان . وفى وجوههن بثور غريبة ، ومن ملابسهن تفوح رائحة غريبة ، ولكنهن اجمل بكثير من التى تنتظره فى بهاده مع نصف دستة من الأطفال .

ولن ينسى هريدى ما حدث ، ضربه بعض الرجال ضربا مبرحا حتى كادوا يقتلونه وسلبوا منه الريال الذى كان معه ، ومع انه قوى فى حجم الثور والآخرين ضعاف كالذباب ، الا انهم كانوا يتحركون بسرعة عجيبة ، ويضربونه فى وجهه وعلى راسه فى مهارة وكأنها طبقا لخطة وكان يود لو يمسك بأحدهم ولكنهم لم يمكنوه وعندما تركوه لم يستطع أن يفتح عينيه . وعندما فتح عينيه وجد نفسه داخل حلقة من الجنود السود مثل بلال وفى ايديهم كرابيج .

واهتز القطار فجأة ، وقام بعض الناس ووقع البعض الآخر ، ورفع هريدى يده يتحسس قفاه وظهره ، صحيح ان الألم زال ولكن آثار الضرب المبرح بالكرابيج ما زالت فى مكانها هناك وكأنها حدثت بالامس .

وابتسم هريدى فى خبث شديد ومضى وقت طويل قبل ان يسير القطار ، وسأل هريدى جاره عن الساعة ، وسأل الجار رجلا آخر ،

وسأل الجار الآخر جارا آخر ، ثم جاء الجواب من بعيد ، من رجل كان يجلس فى آخر العربة .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والحر يكتم الأنفاس ، ورائحة الرجال مختلطة برائحة الشمام برائحة البطيخ برائحة المزيج . وعاد هريدى يهرش فى قفاه وفى ظهره ! وفى راسه تتلاطم الأفكار والذكريات متزاحمة يأخذ بعضها برقاب بعض ، والمشاهد التى امامه كاعمدة التلغراف التى تجرى مذعورة على الطريق المضاد والتى اخفاها الظلام عن عينيه .

وعاد هريدى يذكر كيف نام فى الساحة عشرة أيام بعد .. « العلقة » لم يستطع أن يبرحها ، وكيف طرد عن نفسه خاطر الانفصال عن اسرته وزوجته وعن الصعيد ، ثم عاد الى العمل من جديد ، من عمارة الى أخرى حتى جاءه المعلم ذات يوم وقاده الى معلم آخر . فسلمه لرجل نظيف لا يبدو مثل الآخرين قالوا له انه مهندس وان عمله سيكون بعد ذلك الحفر فى الرمال دون أن يحمل طوبا او يتسلق عمائر .. شىء لا فائدة فيه ولكنه سيتقاضى أجرا كبيرا .. ثلاثين قرشا فى اليوم ، وسيعمل بلا انقطاع .

وفى جوف الصحراء بعد الهرم راح يضرب الفأس فى جوف الأرض .. عمل مريح ، وفيه نوع من الاستقرار وهؤلاء البلهاء يدفعون الأجر ، وهو لا يفهم معنى لكل هذا العمل التافه ، الحفر فى الرمال .. ربما جاءه الحظ الذى أصاب بعض الناس من قبل . ان بعض الناس فى المدينة لا يعملون شيئا ويتقاضون اجرا كبيرا . والأفندى الذى يعمل معه يجلس فقط على الكرسى خلف مكتب كبير وفى الظل لا يحفر الأرض ولا يحمل الطوب ، ورغم ذلك فيبدو انه يتقاضى أجرا كبيرا ، لانه يدخن السجائر فى علبة ، ويشرب الشاى

والقهوة ، ويدفع أحيانا بقشيشا سخيا لهؤلاء الذين يحفرون ، والمعلم مروان مقاول الأنفار ، انه لا يفعل شيئا هو الآخر ، الا الجلوس على المقهى ولعب الطاولة وتدخين المعسل ، ومع ذلك فهو يتقاضى اجرا كبيرا ، اتاح له ان يبنى عمارة فى مصر ، ويشترى عشرة افدنة فى طما ويتزوج أربع نساء .. انه الحظ لابد اذن قد هبط عليه هو الآخر ، والا ؟ فما معنى كل هذا النعيم الذى يرفل فيه .. الحفر فى الرمال خمس ساعات والأجر ثلاثون قرشا ولا توجد هنا بطالة كما هو الحال فى شغل العمارات ويبدو انها لن تكون .. لأن الصحراء عريضة طويلة ، والحفر فيها يستغرق الدهر كله ..

وتذكر هريدى كيف مرت الشهور رتيبة هينة حتى حدث شيء عجيب .. منذ اسبوع واحد .. وكان هريدى يضرب الفاس فى الرمل فى بطء ممل فليست هناك رقابة ، الأفندى فى المنزل والريس فى القهوة ، والصحراء لن تتصدع اذا تأخر العمل فيها قليلا او سار فيها فى بطء شديد ، وعاد هريدى الى الضرب بالفاس فى باطن الصحراء ، ثم مضى وحده يسرع فى العمل ويرفع الفاس الى اعلا فى نشاط ويضرب فى الأرض بقسوة ، لا يدرى لماذا ؟ ربما لأنه تذكر زوجته وامه التى تركها تموت فى الصعيد ولكنه توقف فجأة عن العمل ، فقد غاصت الفاس فى الرمل ، وعبثا حاول أن ينزعها دون جدوى واستطاع اخيرا عندما استعان ببعض الرجال . وخلف الفاس فى الأرض فجوة كبيرة مظلمة سوداء كقلب المعلم مروان ، وانحنى هريدى ينظر داخلها فى بلاهة ثم قفز من شدة الرعب .. كان هناك شيء اشبه بالحجرة ، وجثث كثيرة ممددة وكأنها نائمة ، واوانى طبخ واشياء اخرى كثيرة من بينها ارغفة خبز تبدو تماما مثل خبز الصعيد .

وامتقع لون هريدى وهو يفكر فى هذا الامر ان هذا الذى يراه

لابد مقبرة هائلة ، وهؤلاء موتى منذ زمن بعيد .. وتذكر كلمات الشيخ الدسوقى واعظ القرية التى يرددها فى المسجد كل يوم جمعة ، وهى ان الأرض تخفى تحتها جثث ملايين الخلق منذ ياجوج وماجوج .

وهريدى لا يدرى متى كان ياجوج وماجوج هذا ، ولكن لابد انهم ظهروا منذ زمن بعيد يضرب فى بطن التاريخ الى غور سحيق .

واصفر لون هريدى عندما خطر له انه ربما كان هؤلاء القوم من « المساخيط » الذين سخطهم الله لضلالهم .

وتذكر ثانية كلمات الشيخ دسوقى حيث كان يقول ان الله كان يسخط القوم الظالمين ، وانه سيسخط العالم قريبا بكل ما فيه ومن فيه ، اذن كان الشيخ دسوقى يقصد ان العالم كله سيتحول الى شيء من هذا القبيل وخطر له ايضا ان هؤلاء القوم ربما يمتون الى الافندى المهندس بصلة قرابة ، وان الغرض من حفر الصحراء كان هو العثور عليهم . المهم ان هريدى انتهى من هذه الخواطر جميعا بان صاح وبلا وعى :

ــ يا رجاله ، يا رجاله ، يا رجاله ..

وهرع الرجالة اليه وتوقف العمل فى كل مكان الا عند هريدى ، ونزل هريدى من الفتحة الى الداخل ، كانت الرائحة عفنة قوية ، والناس ينامون فى هدوء تبدو على وجوههم راحة السنين الطويلة .

ونظر هريدى اليهم فى اشفاق وذعر .. وفى حسد ايضا .. صحيح ان الدسوقى كان صادقا حينما كان يقول : لا تأتى الراحة الا مع الموت .. وراح هريدى يذرع أرض الحجرة المظلمة بحثا عن شيء ، لم يكن هناك سوى أحجار فى أحجام مختلفة ..

وفجأة عثر على شيء لامع لابد انه كنز ، وعندما وضعه فى

جيبه ، كانت الفتحة قد اتسعت اكثر ، واصبح فى وسع الرجال أن يروه .

وجاء الريس بعد ساعة ، وجاء المهندس بعد ساعات ، وتوقف العمل فى ذلك المساء ، ونام هريدى بجوار الفتحة تحت الحراسة ، كانت المنطقة قد تحولت كلها الى نهار بفعل الأنوار التى جلبها المهندس ، والمكان كله طوقه الجند المسلحون ، واغتم هريدى لهذه النهاية السيئة ، لابد ان هذا الذى عثر عليه كنز تملكه الحكومة ، او مقبرة تضم رفات احد اجداد رجال الحكومة .

وسهر هريدى الليل بطوله يفكر فى الأقوال التى سيدلى بها ، انه لا يقصد هذا العمل على الاطلاق .. والأفندى المهندس هو الذى امره بذلك وعند الفجر سقط هريدى نائما من الاعياء . وعندما جاء الصباح ايقظوه ، وقادوه الى خيمة نصبها الجند بسرعة ، ودس يده فى جيبه واخرج القطعة الصفراء والقى بها فى الرمل وداس عليها بقدميه .

ودخل هريدى الى الخيمة .. كان هناك ضابط صغير السن ، والأفندى المهندس وافندية مثله بعضهم يلتقط مناظر ، وبعضهم يدون شيئا على ورقة ، لابد انهم رجال النيابة .. وهم هريدى بأن ينحنى على حذاء المهندس يستعطفه ويستحلفه بكل مقدس ان يتركه . ولكن صوتا رتيبا هادئا جاءه من الخلف من الضابط الجالس فى الخيمة :

ـ انت اللى دخلت مقبرة فرعون فى الأول ؟

ـ أنا مظلوم والله العظيم يا بيه .

ولم يلتفت الضابط الى هذا الاستعطاف وسأله :

ـ كانت الساعة كام ؟

ـ والله العظيم مظلوم يا بيه ، احنا ناس غلابة مامعناش ساعات .

وضحك الناس الجالسون ، لابد انهم يسخرون منه ، وهكذا الناس يضحكون دائما من كل ما يصيب الآخرين من شرور . وانتهى التحقيق بسرعة ، وخرج من الخيمة دون ان يمسه اذى ، وبجوار الفتحة قضى هريدى خمسة ايام طوال مسح خلالها كل الصحراء المحيطة بالمقبرة ، بحثا عن القطعة الصفراء التى القى بها ، واول امس نقدوه الأجر كاملا ومكافأة عشرة جنيهات ، وقالوا له اذهب اذا شئت .. هؤلاء البلهاء .

وذهب هريدى وهو لا يصدق ، واشترى الشمام واقة الأرز وكيس السكر وعاد الى طما وها هو القطار يقف فيها الآن والنازلون والصاعدون لن يدوسوا عليه .. انه سينزل معهم وسيدوس هو ايضا على الآخرين ..

وتحسس هريدى الجنيهات العشرين التى فى جيبه . وفتح الشوال من جديد ليرى ما فيه كان كل شىء مكانه ، حتى نسخة الجريدة التى تحمل صورته عند الفتحة والتى اشتراها بقرش صاغ لتتفرج عليها زوجته وكل الرجال فى بهادة ..

وهبط هريدى الى الرصيف ، وقبل ان يترك الرصيف كان القطار قد تحرك .. ونظر هريدى الى قدميه كانتا عاريتين تماما ، لقد نسى « الفردة » الثانية داخل القطار ، اما الفردة الأولى فقد سقطت منه تحت العجلات عند بداية الرحلة .

وخطر له ان يجرى وراء القطار ليأتى بالفردة . ولكن القطار كان قد اختفى مع « الفردة » فى الظلام .. ورفع هريدى الشوال على كتفه ، وعلى تراب الأرض الطيبة غاص هريدى باصابع قدميه المسخمتين .. ومضى مسرعا فى الطريق الى .. طما !

توقف العمل تماما فى القرية فى ذلك اليوم فقد مات الشيخ فراج عند الفجر ، وعمت القرية فرحة شديدة لم تشهدها من قبل .

وعند الدرب الذى ينتهى الى بيت المرحوم جلس الشيوخ على الارض فى حلقات يدخنون ، ويسألون عن أسعار القمح ، وعن موعد تدفق المياه فى الترعة ، ويثرثرون حول سن الشيخ فراج وهل حضر هوجة عرابى أم انه كان طفلا لا يدرك شيئا .

وراح بعضهم يسرد فى حماسة قصص احداث بعيدة وقعت له ، والشيخ فراج عندما كان كل منهما فتى فى ربيع العمر ، وعلى مقربة من الشيوخ جلس الفتيان فرحين بالفرار من عناء العمل فى الحقول وراح كل منهم يقص مغامرة حدثت بينه وبين الشيخ فراج عندما حاول سرقة ثمار الجوافة التى كان يملكها المرحوم عند الجسر ،

وكيف ضربهم الشيخ فراج بعصاه التوت الرفيعة وكان فى جسم كل فتى من أبناء القرية آثار من عصا المرحوم . .

وانتشر الأطفال الصغار يلعبون فى الساحة الواسعة التى سيقام فيها « الصيوان » فى الليل والبشر يغمر نفوسهم ، لأن مساء ذلك اليوم لن يكون كئيبا مثل الليالى السالفة ، فستشع أنوار « الكلوبات » وسيمتد نورها فى الساحة ، وسيلعبون حتى الفجر دون أن يزجرهم أحد فسيكون الجميع فى المأتم حتى الصباح .

وكان الأطفال يرددون وهم يدورون حول أنفسهم لحنا ساذجا أشبه بالنواح :

ــ حانسهر بالليل ، وناكل لحمة على روح المرحوم .

وكان يسكتهم أحيانا عن ترديد اللحن مرور شيخ عجوز مخترقا الحوش فى طريقه الى بيت المرحوم حيث يجلس الرجال فى انتظار تشييع الجنازة ، فيزجرهم بصوت غاضب وهو يلوح لهم بعصاه :

ــ ما تسكتوا ، جاتكم داهية وكانت النسوة العجائز يجلسن فوق أسطح المنازل المجاورة لبيت المرحوم يروين فى أسى بالغ قصة الساعات الأخيرة لموت الشيخ فراج وكيف انه سأل عن فلان . . وفلان وتنبأ بنهايته قبل ان تأتى النهاية بساعات .

وعند باب البيت كان الابن الأكبر للمرحوم يقف والحزن يبدو عليه ، وان كانت الفرحة تغمر كيانه فى حقيقة الأمر ، فقد كان أبوه يملك طاقما كاملا من الملابس الجوخ والشاهى ، وكان يستعملها فى المناسبات الخاصة وقد جاءت المناسبة الخاصة ليستعملها الابن .

وكانت فرحته تمتد الى سبب آخر ، هو ان زواجه بمحاسن بنت شيخ البلد كان مؤجلا لحين شفاء الوالد أو وفاته ، ولقد أصبح الطريق الآن مفتوحا الى هنائه بعد ان تداركت أباه رحمة الله .

وكان الجو يسوده بعض الفتور فقد كان الجميع فى انتظار حضور نجل الشيخ فراج الذى يعمل موظفا فى مصر ، وقد مرت ساعات طويلة قبل أن يحضر .

وعندما حضر تم تشييع الجنازة فى دقائق ، وحمل النعش أربعة شيخ البلد ، ومحمد الخفير النظامى ، وعبد السميع الأخرس ونجله الكبير ، فقد أصر على ان يحمل أباه حتى القبر .

وعندما جاء الظهر كان الرجال قد عادوا من المقابر ، وتم اعداد « الصيوان » وجاء المقرئون من البندر ، وجلس الناس يستمعون الى ترتيل آيات الذكر الحكيم ثم خيم الصمت على الجميع عندما حان موعد الغداء ، والتفوا فى حلقات يأكلون حتى شبعوا ، وكان الغداء ثريدا ولحم ضأن ، فقد كان المرحوم يملك قطيعا صغيرا من الخرفان وكان يرفض بشدة أن يذبح أحدها ، فقد كانت تربية الخراف هواية عند المرحوم .

ولم تنقطع الثرثرة خلال الأكل فقد همس محمد الخفير وسط الشلة التى كان يجلس بينها ضاحكا :

ــ الله يرحمه كان نفسه فيها .

وعندما انتهى الجميع من الغداء ارتشفوا القهوة على عجل ودسوا أصابعهم فى صناديق الدخان كل منهم لفافة ، وغادروا الصيوان مسرعين الى منازلهم . وبقى البعض داخل الصيوان مضطجعين وهم يدخنون فى لذة وأصابع أرجلهم تتحسس وبر السجادة الفاقعة الألوان التى فرشت على الأرض .

وزحف المساء على القرية وهى تموج فى النور ، وصوت المقرىء يلعلع فى أنحاء القرية ، وأبناء الكفور المجاورة يفدون جماعات ليشتركوا فى اللعب وباعة الحلاوة « الغزل » يحتشدون حول

الصيوان والابن الكبير فى طاقم الملابس الجوخ يستقبل الناس والابن الصغير الذى يعمل فى مصر يطوف عليهم بعلب السجائر كلما دخل الصيوان فوج جديد .

وجلس الشيوخ يرتشفون اقداح القهوة ، ويدسون شيئا لزجا أسود اللون فى أفواههم ويسألون الحاج وهدان فى الحاح ان يمزج لهم القهوة بالعنبر الذى يحمله .

وجلس الشبان عند باب الصيوان يختلسون النظرات نحو فتيات القرية عند مرورهن نحو بيت المرحوم أو عودتهن من هناك .

ومرت ساعات الليل على « القرية » سريعة شأنها شأن ليالى العيد ،والمقرئون يتبارون فى التجويد ، والفلاحون يمصمصون مع ابناء القرية المحظوظين . شفاهم عجبا واستحسانا ، وفجأة سرت همهمة بين الجميع أشاعت اللغط فى انحاء المكان عندما حمل محمد الخفير اليهم نبأ هز اعصابهم هزا ، خلاصته ان العشاء لن يقدم لوفود المعزين اكتفاء بما قدم فى الغداء .

واصيب الجميع بخيبة أمل شديدة ، وجلس الشيوخ ساهمين بعد ما أتوا على ما معهم من الشىء اللزج الأسود اللون ، وتسال الشبان جماعات ليسيروا على الجسر فى الهواء الندى ، وهد التعب كيان المقرئين فخفتت أصواتهم ، وافتقدت الرنين الحلو الذى كان لها فى أول الليل .. ولم يلبث الشيوخ أن تسللوا هم الآخرون وقد هاجمهم النعاس . ولم يعد هناك غير المقرئين ، وبعض الذين فضلوا النوم على السجادة ذات الألوان فناموا حيث هم حتى الصباح ، وظل الأطفال يمرحون على ضوء المصابيح حتى ذبلت هى الأخرى واظلم المكان فعادوا الى دورهم من جديد .

ولف الظلام الكئيب القرية وعاد نباح الكلاب يسمع آتيا من

بعيد عبر المزارع والحقول ولم يلبث الفجر ان اشرق عليها وعادت الابواب تفتح محدثة صريرا أشبه بصوت عربة يجرها ثور على طريق حجرى وخرج الشبان بهراواتهم نحو الحقول ، والشيوخ على الحمير فى طريقهم الى البندر ، والأطفال يسحبون البهائم نحو الترعة .

وعادت التعاسة من جديد تحتل قلب كل منهم .

شىء واحد أعاد الأمل الى قلوب أهل القرية ، فقد رأوا عند الكوبرى القديم المتآكل ـ الذى يفصل القرية عن بقية الكون ـ حمدان بن الشيخ عبد الرحيم يسرع الخطى فى طريقه نحو البندر لاحضار الطبيب ، فقد دهمت النوبة أباه ، وتذكر الناس فى القرية ان الشيخ عبد الرحيم مريض منذ أمد بعيد وانه لن يعمر طويلا ، وستمضى على القرية أيام قليلة حتى يهبط عليها يوم آخر فيه حركة .. وترفيه .

نفخ الشاويش عبد الرحيم من شدة الضجر ورفع يده الى فمه فمسح شفتيه ، ثم أمال طربوشه الى الخلف قليلا ، ووضع البندقية بين ساقيه وأخرج منديله المحلاوى فجفف به عرقه الذى يتساقط من جبهته العريضة على غضون وجهه الكالح البارز العظام . ثم اعتدل الشاويش فى وقفته فأصبح مثل شجرة عجوز يابسة ثابتة فى الأرض .. وتلفت فى أنحاء العربة الأخيرة من قطار بور سعيد .

كانت العربة مزدحمة حارة مزعجة ورغم ان النوافذ كانت مغلقة الا انها كانت تبدو وكأنها تحمل مع الركاب شحنة من التراب !

ونظر الشاويش عبد الرحيم الى نفسه من تحت الى فوق ، ومن فوق الى تحت ، كانت البدلة « الميرى » كالحة مثل وجهه ، والحزام نازل قليلا عن المستوى اللائق ، والبنطلون أيضا نازل أكثر من اللازم

على الحذاء ، والحذاء مغبر مجروح فى اكثر من موضع ، وحتى الرباط مفكوك ، وزوج الكلبشات ما زالا فى يده ، كانا منذ برهة فى يدى مجرم رهيب سلمه فى القسم فى القاهرة قبل ان يعود الى مقر عمله فى محافظة بور سعيد .

وتذكر الشاويش عبد الرحيم منظر المجرم والكلبشات فى يديه . وقفاه العريض الغليظ فى اصابعه هو النحيلة المدببة كانها رجلا دجاجة هزيلة . .

وتذكر منظره وهو ساهم أبدا ، مطرق الى الارض فى ذهول على الدوام . ولكن سرعان ما طرد الشاويش صورة المجرم والكلبشات والنظرة الساهمة الحزينة عن خاطره وعاد من جديد ينظر حوله فى انحاء العربة والقطار يجرى به مسرعا كالقدر فى طريقه الى بنها .

وحدث الشاويش نفسه فى أسى . . هؤلاء الجالسون فى بلاهة . . انهم لا يتعبون مثله ومع ذلك ينظرون اليه نظرات يحمل بعضها معنى الشماتة لأنه واقف « زنهار » مع أنهم يعرفون انه شاويش وانه فى مهمة رسمية لان البندقية فى يده والكلبشات مع استمارة السفر فى يده الأخرى .

وعاد عبد الرحيم يجفف عرقه المتساقط حافرا لنفسه فى تجاعيد وجهه النحيل قنوات .

واهتز فى وقفته وكانه سيسقط والقطار يتأرجح وكانه يجرى على غير قضبان ، ولم يفكر الشاويش ، فتقدم على الفور الى ثلاثة كانوا محشورين علىّ مقعد مخصص لراكبين وبلهجة آمرة تحمل كل الضجر الذى يحسه ووجه الحديث اليهم جميعا :

ـــ فسح يا جدع انت وهوه . .

وافسح الثلاثة سريعا للشاويش وسقط الثالث الذى كان يجلس عند الحرف فوق الأرض . .

وهكذا وجد عبد الرحيم نفسه جالسا على الكرسى والطربوش على ركبته ويده على المنديل تمسح شعر راسه الأشيب المبلل بالعرق واطرق عبد الرحيم فترة يستعيد فيها قواه ، ثم رفع راسه فى تثاقل وتمتم فى سرعة يشوبها الضجر :

ـــ لا مؤاخذة يا رجالة .

ولم يجبه احد من الجالسين . . ويبدو انه لم يكن ينتظر جوابا . . فضرب يده فى جيبه الخلفى واخـــرج علبة سجائر من الصفيح الانجليزى واخرج منها سيجارة رخيصة وضعها بين شفتيه واشعلها من رجل يجلس امامه على الأرض بين المقعدين وراح يجذب انفاسا عميقة . .

وسادت فترة صمت قبل ان يتكلم الشاويش عبد الرحيم .

ـــ فاضل اد ايه على بنها ؟

وجاء الجواب من خلفه :

ـــ مابقاش فاضل .

ثم خيم الصمت من جديد . . ولكن هذا الصمت لم يتعوده الشاويش عبد الرحيم ، والرحلة طويلة ، وهو فى حاجة الى ان يتكلم ـــ اى كلام ـــ ومع اى احد . .

ولكن كيف السبيل ؟ والذين من حوله يبدو انهم من هـــواة الصمت البليغ ، وفكر الشاويش عبد الرحيم برهة ثم نظر الى الذين حوله . . رجل فى ملابس بلدية عجوز طحنته السنون واكلت معها نور عينيه وفلاح يبدو انه لا يعرف شيئا ، والرجل الثالث الذى كان

على المقعد قبل ان يجلس الشاويش فقد آثر الصمت فجلس على الأرض بجوار الكرسى . .

وعلى المقعد الأمامى كان هناك افندى يبدو انه متكبر وخواجة من الأروام ورجل فى ملابس متسخة وتحت قدميه صفيحة تحدث ضجيجا كلما اهتز القطار .

ونظر الشاويش الى الرجل المتسخ وراق له ان يتحدث اليه ، فهو وحده الذى يبدو فى حاجة الى الحديث ، وهو ايضا الذى يستطيع ان يتحدث اليه دون ان يخشى منه صدا .

وبلهجة باردة قال الشاويش للرجل المتسخ متسائلا :

ــ بتشتغل ايه ؟

وانتفض الرجل مذعورا ، وادار رأسه الصغير الحليق كقطعة بطاطا مسلوقة فى كل اتجاه ، ثم اجاب أخيرا بعد ان تأكد انه هو المقصود بالسؤال ، وان السؤال قد يكون للتحرى . .

ــ فى الخردة .

وفتح الشاويش عبد الرحيم فمه فى دهشة بلهاء وهز راسه قبل ان يقول :

ــ فى مصر والا فى الاسماعيلية ؟

ــ فى مصر باذن الله ، انما باشترى الخردة من الاسماعيلية . .

وعاد الشاويش عبد الرحيم يقول :

ــ من الكنوبة . . « جمع كامب » .

وابتسم تاجر الخردة فى اطمئنان ودهشة لمعلومات الشاويش الواسعة واجاب :

ــ أيوه .

ولكن الحديث انتهى عند هذا الحد . . وفكر الشاويش فى موضوع آخر للحديث ، غير ان تاجر الخردة فاجاه بقوله :

ــ انا واخواتى .

وانفرجت اسارير الشاويش عبد الرحيم عن ابتسامة هادئة طافت عابرة بوجهه الكادح المنهوك وقال فى هدوء شديد :

ــ واخواتك معاك ؟

ــ ايوه . . ستة . . وعايشين مع بعض .

ــ ربنا يخلى . .

وهز الشاويش عبد الرحيم راسه فى غير عنف وكأن فكرة رائعة قد لمعت فى ذهنه ثم قال :

ــ تعرف ! العيلة اللى زى دى ، مايفرقهاش الا الحريم .

وعلى الفور نطق الرجل العجوز الجالس الى جوار الشاويش عبد الرحيم :

ــ قطعت الحريم وايامها ، هم اللى جايبين الكافية للعالم .

وهتف الشاويش عبد الرحيم مؤمنا على حديثه :

ــ اسم الله عليك ، هم سبب الفساد والبلاوى ، انما الراجل « الجدع » صحيح هو اللى يعرف يدق مراته على راسها . . تعرف . . انا كان عندى حريم فى البيت . . على الطلاق من ذراعى ما كانوا يبصوا من شباك ولا من باب . . ماعندناش مسخرة ابدا . .

وهتف تاجر الخردة :

ــ ونعم الرجال . . مفيش كلام .

وخيم الصمت من جديد ، وتناول الشاويش عبد الرحيم عود كبريت من الخشب وراح يحفر به أسنانه السوداء التى نخرها

السوس ، ولكنه سرعان ما قذف بعود الكبريت الى الأرض وقد ظهر الغضب على وجهه بعد أن سال الدم من فمه ولطخ شفتيه ، ونظر الرجل ذو الملابس القذرة الى الشاويش عبد الرحيم فى الم مفتعل ، وفى وجهه يبدو الرياء الشديد والرغبة فى النفاق ، وهز الشاويش عبد الرحيم رأسه فى غضب وعصبية ومصمص شفتيه آسفا قبل أن يقول :

ـ تعرف ! كبريت اليومين دول سم ..

وظهرت الدهشة على وجه تاجر الخردة وتساءل مستنكرا قول الشاويش :

ـ سم ! ؟

ـ ايوه سم ، تعرف كبريت زمان كان فيه البركة .. يا سلام !

وهز تاجر الخردة رأسه مؤمنا على رأى الشاويش وهتف مسرورا :

ـ كلام حلو .. الكبريت بتاع اليومين دول شغل بره ، كل شغل بره سم .

وكان القطار قد دخل محطة بنها واخذ الناس يستعدون للنزول ورغم ان عدد النازلين كان كثيرا الا ان الزحام ظل على اشده والضجة الهائلة تمزق ما تبقى من اعصاب الناس ، وظهر على الأفندى الجالس أمام الشاويش الضيق الشديد بسبب الزحام ، وكان الشاويش منهمكا فى تجفيف عرقه بمنديله المحلاوى العريض عندما لمح على أسارير الأفندى هذا الضيق الشديد فمال بجسمه الى الأمام وقال للأفندى بهمس مسموع وكأنه يدلى اليه بسر خطير .

ـ تعرف الزحمة دى من ايه ؟

ولم يجب الأفندى فواصل الشاويش حديثه قائلا :

ـ من الانجليز !

ـ انجليز ؟ !

هتف بها الأفندى فى دهشة اذ لم يكن فى العربة انجليزى واحد ، وابتسم الشاويش فى خبث من يعرف الأسرار جميعا وقال بنفس الصوت الخافت المسموع :

ـ انا مسكت داورية سبع سنين عند الكنوبة .. تعرف الانجليز دى ، ربنا غضبان عليها .

وهتف بائع الخردة مسرورا :

ـ الله اكبر .. يا سلام ، كلام زى الشهد .

وقال الشاويش عبد الرحيم فى كبرياء :

ـ أمال ، وتعرف غضبان عليهم ليه ، هناك الست زى الراجل والراجل ده ولا حاجة .

وعاد الرجل العجوز الذى طحنته السنون ينصت فى اهتمام بالغ ثم اخرج علبة نشوق اخذ منها حفنة بين اصابعه وراح يعطس بشدة .. واخرج الأفندى منديله ووضعه على فمه وقد ادار وجهه الى الناحية الأخرى ، ولم يترك الشاويش هذه الفرصة تمر دون ان يتحدث فقال للأفندى :

ـ والله ما فيه حاجة بتحوش المرض أبدا ، ده كله امر ربنا ، تعرف ايام الكوليرا ، كنت آكل بلح من غير غسيل ، ولا اتحقنت ولا حاجة دى الحقن بتجيب العيا .

وضحك الشاويش عبد الرحيم ضحكة هزيلة قبل أن يستطرد فى الحديث :

ـ تعرف ايام الكوليرا دى بقيت اقول اياك تمسح صنف النسا من على وجه الأرض ، كان العالم صحيح يرتاح .

ـ مضبوط والله ، كلام زى الشهد ..

هكذا صاح بائع الخردة وهو يناول الشاويش سيجارة رخيصة من سجائره ، وبعد أن أشعلها له صاح من جديد ..

ـ ده الستات دول لعنة ..

وعقب الشاويش قائلا :

ـ تعرف مش كله .

ـ ايوه مش كله ، مضبوط !

وعاد الشاويش عبد الرحيم الى حديثه :

ـ اسألنى انا ، حاكم انا لفيت الأربعتاشر مديرية ، مديرية مديرية ، فيه ستات تمام ، تصلى وتصوم وتعرف ربنا مضبوط انما دى واحدة فى الألف ، ويمكن فى المليون .

ـ مضبوط فى المليون ، ده انا كنت أعرف واحدة ست بتضرب جوزها بالشبشب .

ـ تعرف ايه .. هو انت شفت حاجة ، بقولك اسألنى انا ، ده ياما ناس من النوع ده امال هو غضب ربنا ده من شوية ، ده سيدنا الخضر قال عليكم بالنسا هم أصل الفساد .

وظهرت النشوة على وجه بائع الخردة وهتف فى ارتياح :

ـ يا سلام .. ونعم يا عم .

وعاد الشاويش يقول :

ـ أمال ، دى حاجات مثبوتة كلها بس فين اللى يقرأ واللى يسمع .

وقال بائع الخردة فى زهو :

مضبوط ، اهو ياما ناس بيقروا ويكتبوا ، انما فين الناس اللى تعرف الكلام المفيد ده .

وقال الشاويش عبد الرحيم :

ـ الكلام ده وغيره ، ياما فيه كلام زى الشهد ، انما طول ما صنف الحريم ده فى العالم مافيش فايدة .

وكان القطار قد غادر « منيا القمح » فى طريقه الى « ابو حماد »

واخرج الشاويش ساعته الضخمة من جيب سترته ومسحها بمنديله ثم هز راسه فى اعجاب :

ـ يا سلام .. سواق « جدع » صحيح ..

وهتف بائع الخردة :

ـ من بختنا .

ونظر الشاويش عبد الرحيم اليه نظرة كبرياء وقال فى زهو شديد :

ـ تعرف ، اهو اللى زى ده تلقاه بعيد عن صنف النسا ، انا ايام ما كنت متجوز بصراحة يعنى كنت مش ملتفت لعملى ، دلوقت ما بونش .

ومال تاجر الخردة الى الأمام وهمس للشاويش وكأنه يلقى اليه بسر رهيب :

ـ امال الست فين دلوقت ؟

وتنهد الشاويش عبد الرحيم فى أسى عميق :

ـ ياه .. تعيش انت .. كانت صاحبة عيا ، وربنا افتكرها من عشرين سنة ، ومن يومها والله .. صمت عن صنف الحريم ده .. من خمستاشر سنة جيت اجوز تانى .. بنت جماعة من بلدنا ، قعدوا يتمحكوا المهر ايه .. والعفش ايه .. والسكن ايه ، حلفت يا شيخ ميت طلاق من ذراعى ماتجوز ، قلت يعنى حاجيب ايه ، اهى تهمة .. ومن يومها ..

ـ عين العقل ، ونعم بالرجال ، انا راخر وحياتك دلوقت بتاع اربعين سنة سن انما مافكرتش فى جواز من اى حرمة حاكم انا ساكن مع امى واحدة ست عجوزة تصلى الوقت بوقته وست الخوات ، ولا مؤاخذة عايشين كلنا فى مطرحين ، حاتجوز أوديها فين ؟ كفاية الواحد يدوب يعرف يجيب لقمة العيش وبس .

— ريحت نفسك والله من الخوتة وعدم الراحة ، تقطع الحريم وايامها .

وكان القطار قد بدا يزحف ببطء نحو رصيف محطة ابو حماد ، وعندما توقف تماما كان الازدحام الشديد قد خف بعض الشيء .

وصعد بعض الناس الى العربة .. عامل وافندى وبائع كازوزة وافندى وامراة .. امراة جميلة مشرقة مثل الصباح الجميل ، وهدا الركن الذى كان يجلس فيه الشاويش عبد الرحيم والأفندى والخواجة ، هدأ تماما وقد تسمرت عيون الشاويش وبائع الخردة على الحسن الصارخ الملفوف فى الغلالة الرقيقة السمراء ، التقت عين الشاويش عبد الرحيم بعينى بائع الخردة ، كان الأخير يلعق شفتيه ولعابه يسيل من جانب فمه المفتوح .

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن ينهض الشاويش واقفا ليصلح من هندامه ، وعيناه لا تبتعدان عن المراة التى وقفت فى ركن قريب .. واصلح الشاويش عبد الرحيم من الحزام ، ورفع البنطلون الى الحد اللائق ، وثبت ياقته المنشاة واحكم تثبيت زراير الجاكتة ، واخرج منديله المحلاوى الذى كان يمسح به عينيه منذ برهة قبله بلعابه وانحنى حتى الأرض فمسح الحذاء فى همة قبل ان يعتدل واقفا من جديد .. ومر بائع غازوزة فاصطدم بالسيدة فاحتجت ، وثار الشاويش ثورة عنيفة :

— انت يعنى عميت ، مش شايف الست ، صحيح ناس مافيش عندكم دم ، عالم ايه الزلط دى !

— كلام مضبوط ، ناس مايختشوش ، وتقدم الشاويش خطوتين الى الأمام وفى يده البندقية والكلبشات على الكرسى وابتسم للسيدة فى حياء :

— اتفضلى يا ست .

وفى حياء مصطنع ودلال ظاهر قالت السيدة :

— اتفضل انت .. كتر خيرك .

وابتسم الشاويش فى خبث قبل ان يقول :

— ده واجب يا ست . اتفضلى انت من الزحمة .

و «تفضلت» السيدة وجلست ودار حوار طويل قبل ان يعرف الشاويش انها فى طريقها الى اختها فى شارع الثلاثينى بالاسماعيلية . وانها ستمر من نفس الطريق الذى سيمر به وانه ايضا سيقوم بمهمة توصيلها الى المكان الذى تريد .

وعندما وقف القطار فى محطة الاسماعيلية خرج الشاويش ومعه السيدة ، فعبرا الكبرى معا وخرجا من الباب العمومى الى الميدان الفسيح ، ثم توقف الشاويش فجأة ولم تنتبه السيدة الا والشاويش يجار بأعلى صوته جاى جاى جاى .. ثم جرى باقصى سرعة الى داخل المحطة .. كانت خاوية هادئة الا من بعض الباعة والحمالين ، والقطار الذى كان هناك منذ لحظة تركها فى الطريق الى بور سعيد ، وزوج الكلبشات قد نسيه الجاويش داخل العربة ومعهما « اورنيك » تسلم المجرم فى محافظة مصر ، وتاجر الخردة اختفى هو الآخر عن الأنظار .

عندما عبر محمود الدسوقى كوبرى شبرا البلد كانت الشمس قد أخذت تعلو فى الأفق باعثة حرارتها القوية الشديدة فى يوم من أيام شهر أغسطس القائظة . وكان التعب قد استبد به تماما رغم أنه لم يكن قد قطع من الرحلة الطويلة التى فرضتها عليه الظروف الا شوطا قصيرا . فهو منذ الصباح الباكر يلهث متعجلا على الطريق قاطعا المسافة من صحراء العباسية حيث مقام الشيخ حمزة فى طريقه الى قريته بهناى بالمنوفية .

ورغم انقضاء كل هذه الساعات الطوال الا أنه لم يقطع شيئا يذكر ولم تزل أمامه ساعات أخرى طويلة مملة فى مثل هذا القيظ الرهيب . وبسمل محمود الدسوقى وهو يرفع ذيل جلبابه الأسود الكشميرى ليغطى به رأسه وخطا نحو اليمين محتميا بظل الأشجار الطويلة البائسة التى تعرت من أوراقها قبل الأوان .

وعاد محمود يذكر وهو يحث الخطى على الطريق ما حدث له بالأمس ...

الأمس !!؟ يا له من يوم رهيب مر عليه وكأنه عام رغم وجوده على بعد أمتار قليلة من ضريح سيدى حمزة صاحب المعجزات والكرامات التى تدوى كالطبل فى أنحاء المنوفية ، وابتسم محمود الدسوقى رغم الاعياء الشديد فانفجرت ابتسامته عن فم واسع مهجور . ولثة خربها الداء وسنة واحدة متآكلة تقف وحدها فى الفم الواسع العريض كأنها شاهد قبر فى صحراء مجهولة الحدود ..

ورفع محمود يده يجفف عرقه بذيل جلبابه دون أن يبعده عن رأسه ثم دس يده فى طيات ملابسه الداخلية حتى لامست ظهره المجدودب وأخذ يهرش فى حركة منتظمة وبصوت رتيب مسموع ، وازاح ذيل جلبابه قليلا الى الخلف من راسه ورفع عينه الى السماء وحملق فى قرص الشمس التى بدت كطاقة جهنم ..

واستعاذ محمود من جهنم ومن قرص الشمس . ثم جال ببصره فى الفضاء الواسع العريض ، كأن الهواء لزجا جافا راسبا فى كثافة على مقربة من سطح الأرض ، وثمة طيور تطير شاردة نحو الشمال فى بطء ممل ، ثم غض ببصره نحو الأرض ونفخ فى شدة ، وزام فى اسف عميق ، وراح يتذكر وهو يتدحرج على الطريق الجاف المغبر الطويل ما حدث له .. منذ الصباح الباكر لأول امس .. وهو نائم كالكلب بجوار الفرن « ومباركة » زوجته تعد له « طرحة » العيش القمح ، والخروف بجوار الفرن ليحمل كل هذا فى الصباح للشيخ حمــزة ..

كان النهار قد انبثق والشمس لم تظهر بعد ومحمود يهرول على الطريق الزراعى ساحبا الخروف فى عنت والنوم لم يبرح جفونه بعد ، ومباركة تتقدمه تحمل « مشنة » العيش على راسها

حتى وصل الركب الى النقطة الثابتة ، وأكثر من عربة أوتوبيس عبرت من امامه وهو لا يستطيع الركوب ومعه الهدية المبروكة لأن الكمسارية لم يكونوا قد سمعوا بعد بسر الشيخ حمزة الباتع ..

ووصل محمود اخيرا الى القاهرة قبل الظهر بقليل ، وقطع المسافة من شبرا الى العباسية على قدميه و « المشنة » فوق رأسه والخروف يسحبه بحبل طويل علقه فى رقبته وقدميه ..

وعندما وصل الى المولد لم يكن هناك خلق كثيرون ، كان الحر شديدا مرهقا ، والشيخ حمزة الصغير ممددا على السجادة العجمى الفاخرة ومن حوله بعض المريدين الذين ظلوا على ولائهم للشيخ الصغير بعد أن انتقل الشيخ حمزة الكبير الى مولاه ، وضريح الشيخ الكبير يتضوع عبيرا ونورا ، والمكان كله يعبق برائحة البخور ، ودار رأس محمود الف مرة قبل أن ينادى على الشيخ حمزة ، وهكذا نهض الشيخ من مجلسه متثاقلا ومن خلفه مريدوه حتى وصل الى محمود فلم يتمالك الأخير نفسه فانكب على يده مقبلا اياها قبلات سريعة متلاحقة ..

وهكذا أفلت الخروف من يد محمود وشرد فى الصــحراء الواسعة ، وساعة كاملة ومحمود يجرى خلف الخروف الشــارد متوسلا بعلوب الأرض « حلق يا جدع .. امسك يا خويا » والشيخ حمزة ومريدوه يشرفون على عملية المطاردة حتى استطاع محمود أن يمسك بالخروف بعد أن فقد ما تبقى فيه من جهد قليــل ـ وسحب الخروف من أذنيه حتى سلمه للشيخ وعلى شفتيه ابتسامة عريضة استطاع أن ينتزعها فبدت صفراء باهتة لا معنى لها ..

وهمس الشيخ فى أذن واحد من الملتفين حوله وسرعان ما ظهرت بالقرب من الجمع المحتشد عربة فارهة نزل منها سائق حمــل

الخروف داخلها ثم انطلق بها مثيرا خلفه غبارا شديدا آذى عينى محمود رغم أنه كان وقتئذ مطرقا الى الارض فى حياء شديد .

ولم يدر محمود أين ذهب الخروف ولكنه عرف مصير « المشنة » فقد دخل بها رجل عجوز مخترقا الساحة الكبيرة الى ركن قصى حيث يقوم بعض الرجال بالطبخ على قدم وساق لتجهيز العشاء للوافدين من الريف والمدينة لاحياء الليلة الكبيرة لمولد سيدى حمزة ، وعندما رفع محمود عينيه الى اعلى لم يجد الشيخ ولا احدا من مريديه .. فحمد الله فى سره لانه كان يود الجلوس ليستريح ..

وجلس محمود قليلا على الرمال الناعمة الباردة حول الضريح .. ولكن لقلبه كان ياكله لزيارة اخيه فى القلعة ، لم يكن له سواه .. وقد هجر القرية صبيا وجاء الى المدينة واشتغل صبى بقال وموزع عيش « فينو » أبيض ثم خفير مزلقان ثم نشبت الحرب فكون نفسه واستطاع ان يمتلك لنفسه بيتا وأن يتزوج واحدة من مصر طويلة وبيضاء مثل الجير ولم يعد بينهما اتصال الا فى مثل هذه المناسبات القليلة ..

وخلع محمود نعليه ودخل الى الساحة الكبيرة ومن ثم انفلت الى ضريح الشيخ حمزة فقرأ الفاتحة مرات مترحما على والديه وعلى أموات المسلمين جميعا ، ثم دار حول الضريح مرات متمتما ببضع امنيات ساذجة ثم دار حول الضريح من جديد قبل ان يغادر المكان كله وهو يمسح وجهه بيديه في طريقه الى القلعة .

ووصل محمود الى منزل أخيه بعد العصر بقليل فتوضأ وصلى العصر ثم القى عليه أخوه عدة أسئلة قصيرة عن البلدة وحال الذين فيها أجاب عليها محمود فى اختصار شديد ، ثم قص على اخيه وهو جالس القرفصاء يتناول طعامه من بقايا طعام الأمس قصته مع

الخروف فى البلدة عند الفجر وفى صحراء العباسية عند الظهر ، وبان الغضب الشديد على وجه أخيه وهو يستمع اليه ثم صرخ فى وجهه مؤنبا :

ـ انك أولى بهذا الخروف ؟ هل اكلت حتى حمدت الله وشربت حتى ارتويت ، ثم لم يبق الا موالد الأولياء واضرحة المشايخ ، ستعيش وتموت « فلاحا » لا تفهم حال الدنيا وكيف تسير الآن ..

ورفع مبروك ـ وهذا اسمه ـ ساقيه وضم يديه حولهما على هيئة دائرة وعاد يصرخ فى محمود ..

ـ انظر الى ، هل أرسلت شيئا ، هل ذبحت دجاجة .. لماذا لا تفعل مثلما أفعل ، أو انك تفعل هذا لكى يقول الناس « والله محمود راجل عال وعمدة » ، لماذا لا تعيش فى حدودك أيها الأبله ثم .. وهرش مبروك فى انفه قبل ان يقول :

ـ ثم اخوك .. اليس أولى من الشيخ حمزة ، هل ياكل الشيخ حمزة .. هل يشرب .. ان أولاده فى بحبوحة من العيش . فابنه حمزة الصغير مدير في الوزارة والآخر طبيب والثالث ضابط بوليس والرابع فى الجامعة ، وانت ؟ لا شيء ، لم يكن عندك سوى الخروف وقد سحبته بنفسك للشيخ حمزة .

ورد محمود فى خوف شديد من كلام اخيه الذى يبدو معقولا الى حد ما رغم ما فيه من كفر شديد :

ـ اصله نذر علينا .

ـ نذر .. هكذا صاح مبروك فى تهكم لاذع .. ومن قال لك انذر شيئا .. لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، اراهن انك لم تاكل اللحم طول العام وجلبابك تملؤه الثقوب وكانه غربال ، لقد هرمت

ويبست وأصبحت جلدا على عظم وستموت قبل الأوان . ولكن لك أن تفعل ما تريد فلن انصحك حتى تموت .

وتوقف محمود عن ازدراد الطعام الذى امامه رغم انه كان يحس جوعا يمزق أحشاءه ، وجذبت زوجة أخيه غطاء رأســـها الى الأمام حتى لامس حاجبيها وقالت فى لهجة مضغوطة وكأنها تتحدث من انفها .

ــ أكمل أكلك ، والا الكلام اللى فى صالحك يزعل ، احنا مالناش دعوة ، كل واحد عقله فى راسه يعرف خلاصه .. ثم قامت فغادرت الحجرة على الفور ، ظل الرجلان صامتين كأنهما تمثالان من النحاس حتى بعد أن نهض محمود وغسل يديه ثم عاد ولبس الحذاء وتأهب للخروج ، ولم يحاول اخوه ان يستبقيه بل مد يده فى فتور بورقتين من فئة العشرة القروش دسهما فى يد محمود الذى طوى اصابعه الخمسة عليهما على الفور ، ودون أن يستدير لمواجهة اخيه فتح الباب في هدوء وانصرف عائدا الى العباسية ..

وصل محمود الى ساحة المولد فى المساء .. كانت الأنوار تتلألأ من بعيد وصوت مرتل التواشيح يدوى فى الميكروفون . وخلق كثيرون يحومون فى الساحة الكبرى فى ملابس بيضـــاء ، والليلة الختامية تبدو عامرة جميلة لائقة بمقام الشيخ حمـــزة الكبير ... وصدم محمود فى أحلامه عن « العشوة الطيبـــة » التى كان يمنى نفسه بها ، فقد قدم العشاء منذ الساعة الخامسة وظل الجميع يأكلون حتى الثامنة مساء الذين حضروا بعد الثامنة لم يقدم لهم شىء فجلسوا فى الساحة الكبرى حول الضريح يزفرون وقد فترت حماستهم للمولد وراحو يتحدثون فى امور شتى متصلة اتصالا وثيقا بالمعايش والأرزاق ، وافترش محمود الأرض وسط مجموعة من قرى مختلفة بالمنوفية جمعتهم الليلة المباركة .

وكان الحديث يدور كله حول كرامات الشيخ حمزة وكيف ان خلقا كثيرين حضروا الليلة من بلاد بعيدة وأكثرهم ممن لم يكونوا على اتصال به فى حياته التى امتدت عشرات السنين .

وراح كل منهم يتحدث عن كرامات الشيخ التى سمع بها والتى رآها بنفسه . وكان يتزعم الجميع الشيخ حسنين فهو اعلمهم جميعا بكرامات الشيخ ، فهو ينيف على السبعين وكان من الواصلين على الشيخ ومن صحابته المفضلين .. ذكر الشيخ حسنين واقعة حدثت في صباه وكانت فى مولد الشيخ معروف والد الشيخ حمزة الكبير وكيف ان الآلاف المؤلفة التى هرعت لاحياء الليلة اكلت حتى شبعت من خروف واحد و « مشنة » عيش واحدة لأن يد الشيخ حمزة كانت مبروكة بفضل الله .. وتململ محمــــود فى جلسته وهو يستمع لفضائل الشيخ حمزة الكبير ، وتحسر لأنه ليس حيا الآن . اذن لاستطاع محمود أن يتناول عشاءه فلا يعانى عضـــة الجوع كما يعانيها الآن ، وفكر محمود فى ان يشترى شيئا يأكله ، ولكن كل ما معه ثلاثون قرشا ، سيركب بعشرة ، الريال سيقطع به جلبابا للولد سيد ، وهو يستطيع ان يصبر حتى الصباح وسيصل القرية فى الضحى ويستطيع أن يأكل هناك ما يريد ..

وكان الحديث بين المجموعة قد انتقل من واحد الى آخـــر وسمت المجلس كله بعد ذلك ، وطالت فترة الصمت ، وكان الجوع قد نال من الجميع فاضطجعوا على الرمال يحدقون فى النجوم .. وفجأة هتف محمود بصوت غير مسموع .. وكأنه لم يكن يقصد ان يقول .. « انا جبت خروف النهاردة » .. وانتفض جاره عبد المقصود وشب على ركبتيه وقد مال بجسمه الى الأمام مستندا بيده اليسرى الى الرمال وهتف صارخا فى وجه محمود :

— بتقول ايه ؟

وهرش محمود قفاه قبل أن يقول وكأنه يعتذر عما قال .

— ده نذر علينا ، خروف لا مؤاخذة سمين .

وخبط عبد المقصود كفا بكف وهو يلعن كل شيء ، ومع كل شيء هذه اجداد الذين نسلوا محمود منذ عهد آدم الى آخر الزمان.

— بقى خروف يا بغل وقاعد بطنك تصوصو من ..

ولم يواصل عبد المقصود حديثه ، فقد اقبل الشيخ حمزة عليهم فوقفوا جميعا ، ونظر الى كل واحد منهم بعينيه الناعستين الجميلتين ، ووجهه الأحمر السمين المستدير وبشرته الناعمة اللامعة الحمراء ، ومد يده البضة المشربة بالحمرة فاختطفها محمود بسرعة وطبع عليها قبلة طويلة وسأل الشيخ وعلى شفتيه ابتسامة مضيئة .

— عسى ان تكونوا فى خير حال ، وان يكون العشاء قدم لكم جميعا ، فان الدنيا « هايصة » كما ترون ، وهذه ليلة مباركة نسأل الله ان يعيدها عليكم بالخير والبركات .

وزام عبد المقصود ولم يتكلم ، وهرش الشيخ حسن قفاه وتحول الآخرون يبحثون فى الرمال عن أحذيتهم أو عن شيء آخر علهم يكونون قد نسوه هناك ، تولى الاجابة محمود فهتف صارخا .

— الحمد لله ، خير الله كتير ، وبركة الشيخ كتيرة .

انصرف الشيخ بعد ان اعلن الجميع عن اقتراب موعد «حضرة» الذكر ليستعدوا لها ..

واقبل الجميع على ساحة الذكر ، وانفلت محمود بعيدا

فاخرج القروش الثلاثين وعدها أكثر من مرة ، ثم اختار لها مكانا فى السروال عند الجنب الأيمن ، ومن ثم اتجه الى حلقة الذكر فأخذ مكانه وراح يتطوح في حركات منسجمة مع الصف الطويل من الرجال ، وكان الجوع والارهاق قد هدأ كيانه وسلبا حيويته وقدرته على حركات الذكر ، ولكن ما ان مر الوقت ومست الجميع الرحمة الربانية ، وطفا الزبد على أفواه البعض وتدفق العرق غزيرا من جباه الرجال حتى اندمج محمود هو الآخر وذاب فى الذكر حتى نسى متاعبه تماما .. حتى انه بعد ساعة من الزمان سقط مغشيا عليه فلم يفق الا فى الصباح ..

وتذكر محمود ما حدث له فى الصباح وهو يسير على الطريق الزراعى الطويل عند قرية سنتريس عندما فتح عينيه وكانت حرارة الشمس حامية والصحراء قد تحولت الى جهنم وهو نائم فى مكان يبعد عن حلقة الذكر مسافة طويلة والسكون يشمل كل شيء، سكون عميق كثيف وكأنه ضباب ، حتى ان محمود قد ضرب راسه بيده ليتأكد انه مازال على قيد الحياة ، ورويدا رويدا بدا يفيق وبصره يميز الأشياء التى من حوله .. الخيمة ما زالت مكانها وآثار ليلة الأمس تبدو واضحة .. قصاصات ورق كثيرة تتحرك وكأن فيها حياة حين يهب عليها نسيم الصحراء الساخن الجاف، وفردة حذاء مقلوبة ، وطاقية صوف مدفونة فى الرمال وآثار اقدام حافية على الطريق بين الخيمة والضريح ، والشيخ حمزة واقف وسط مجموعة من العمال يناقشهم فى صوت مسموع حول اجر الميكروفون والكراسى القطيفة التى خصصت للمقرئين والضيوف العظام .. ودس محمود يده فى طيات ملابسه يتحسس جسمه الذى لم ير الماء منذ شهور ، ومست يده نفس المكان الذى أودعه بالأمس القروش الثلاثين ، ثم هب واقفا وكأنها لدغة ثعبان .. ومن اجل البحث عن الثروة الضائعة خلع محمود

الجلباب والفانلة ثم خلع السروال ، ووقف وسط الصحراء « بلبوصا » يفتش في كل خرق عن القروش التى ضاعت مع ليلة الأمس ومضى اكثر من ساعة ومحمود يجأر بأعلى صوته وهو يلطم خديه دون مجيب ، حتى خيل اليه أن من كرامات الشيخ حمزة الصغير أن اذنه لا تلتقط مثل هذه الأصوات التى نهى عنها الله كما قال الشيخ نفسه عندما ذهب اليه محمود يشكو ما حدث له .

ـ اسمع يا محمود .. ان ما يفقده الانسان ما هو الا تكفير عن سيئات ارتكبها المرء دون أن يشعر وربما هو تعويض لمال حرام اكتسبه الانسان دون أن يدرى بمصدره ، والدنيا على حالها منذ الأزل فى اخذ وعطاء ، وما ضاع اليوم قد يأتى به الغد وتناول محمود يد الشيخ فقبلها وعبرة يتيمة تنحدر من عينيه الى جانب فمه المفتوح فى ذهول .

واختطف الشيخ يده بسرعة ودسها فى جيبه وهو يعيد باقى النقود التى نقدها للعمال اجرا عن الكراسى والميكروفون وهتف بصوت مسموع .

ـ عاوز فلوس ولا حاجة يا محمود .

وهتف محمود فى صوت عاجز .

ـ متشكر يا سيدى الشيخ انا رايح لأخويا .

واتجه الشيخ فى خطوات واثقة مطمئنة الى عربة كانت تقف الى جانب الطريق واختفى داخلها وسرعان ما اختفت هى الأخرى عن الأنظار ، بعد أن اثارت خلفها زوبعة من الرمال آذت عينى محمود . واكتشف محمود وهو يبتلع حسرته أنها نفس العربة التى حملت الخروف بالأمس ..

واستدار محمود وذيل جلبابه على رأسه فى طريقه الى القلعة ..

الى أخيه .. وطافت برأسه وهو يسير مسرعا فى شارع الجيش ذكرى المقابلة الفاترة وبقايا الطعام البائت ، الكلام الموجع والنظرة المتحفزة ، والتهكم اللاذع ، وارتعش بدن محمود وهو يذكر كل هذا .. وكانت القلعة تقف شامخة اعلى الجبل وتبدو لعينة وهو واقف فى صرة العتبة الخضراء يرنو اليها من بعيد والأفكار المزعجة السوداء تتزاحم حوله وتسد عليه الطريق الى هناك ، واستدار محمود الى الخلف الى شارع كلوت بك الى شبرا البلد على قدميه .

كانت الشمس قد مالت للمغيب ، ورائحة الأرض الطيبة السوداء تملأ خياشيمه . ونقيق الضفادع أخذ يعلو فى الجو ، وعواء ذئاب جائعة هائمة وسط الحقول يأتى من بعيد ، ونباح كلاب متحفزة يحمله الريح من الضفة الأخرى للنهر .. ومجرى الرياح المنوفى يتدفق عميقا باردا مخضرا مسرعا نحو الشمال حاملا على صفحته كميات هائلة من العشب والنخيل .

وأزاح محمود ذيل جلبابه عن رأسه ، وانحدر الى ضفة النهر ثم انحنى يشرب بفمه من المياه الجارية وهو ينخر كالحصان .. ثم ارتقى المنحدر من جديد وهو يمسح بيده رأسه ورقبته ، ورفع رأسه ينظر الى « بهناى » على بعد خطوات من مكانه وهو يتلو الفاتحة فى همس على روح الشيخ حمزة ، وساقاه النحيلتان تسرعان الخطى حتى اختفى داخل مسارب القرية الضيقة ..

تذكر الناس فى قرية « نكلة » قصة حسن أبو سويلم و « الخوجاية » فى تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء ، مع أنهم كانوا قد نسوها منذ أعوام .. وكانت المناسبة التى ذكرتهم بالقصة هى موت حسن بعد أن اعتكف طويلا فى المصلية التى على حرف النهر .

وعندما تهادى نعشه فى المساء وسط المصابيح والمشاعل ، وقف الناس الذين كانوا فى المقهى رافعين أصابعهم متمتمين بالشهادتين على روح الذى فى النعش .. فقد كان صديقا لهم فى أيام بعيدة ، يوم ان كان يجلس على المقهى ويحكى قصة الخوجاية البيضة التى سلبت عقله فى شارع الهرم .. وكان حسن قبل أن يموت يعمل فى الجمعية التعاونية وقبل ذلك كان فى مصر ، ولم يدر أحد من أهل القرية ماذا كان يفعل هناك ، ولكنه قبل ذلك كان يسرح خلف الجمل طول النهار من القرية الى المدينة وبالعكس .

واصل القصة أن حسن كان يسير خلف الجمل ذات صباح فى طريق الهرم فى طريقه الى « نكله » عندما وقف فجأة راشقا العصا المشمش الرفيعة بين جلد ظهره وجلبابه الأزرق الرقيق . وراح يهرش بقسوة مخترقاً ظهره طولا وعرضا ، حافرا بطرفها المدبب قنوات وسط العرق والطين .. وظل عشر دقائق وهو يهرش هرشا متصلا محركا أكتافه خلال عملية الهرش ، ملتقطا أنفاسه بسرعة وهو يلهث كالكلب ، مغلقا عينيه فاتحا فمه من اللذة التى تجتاح جسده كله ..

ولم يكن فى نيته أن يكف عن الهرش أبدا ، لولا أن الجمل ترك الطريق منحرفا نحو المزارع فجرى خلفه ، وعندما استدار به نحو الطريق العام استوقفه ثلاثة أشخاص : « خوجاية » ورجلان معا. ظلوا ينظرون الى الجمل فترة طويلة ، وهم يحومون حوله وكأنهم لم يروا مثله من قبل ، والست « الخوجاية »تربت عليه فى حنان . وحسن واقف خلفالجمل وكأنه ليس موجودا فى نظـــر هؤلاء الناس .. والتفتت الخوجاية الى حسن أخيرا ، وطلبت اليــــه بالاشارة أن يسمح لها بركوب الجمل برهة ، وشمر حسن عن ساعديه ، ورفع الخوجاية من وسطها الى اعلا ، وأزاح الهــــواء فستانها الرقيق فكشف عن جسدها ، افخاذ ممتلئة جميلة شديدة البياض والاحمرار .. ورائحة نفاذة لم تدخل خياشيم حسن من قبل ، تفوح من الجلد الناعم الرقيق مثل الفستان الذى يغطيه .

ودارت الأرض بحسن فلم يستطع أن يرفع الخوجاية الى اكثر من هذا ، وعندما هوى بها الى الارض ، ارتمت على صـــدره فاحتضنها ، واحس بصدرها الناهد وشعرها الأشقر الناعم ووجهها الذى يطفح دما وجمالا .. ولم يستطع الوقوف على قدميه بعد

ذلك .. واحس رغبة في الجلوس ، فجلس متعبا على الرصيف يلهث كقطة تلد !

وصعدت الخوجاية على ظهر الجمل بمساعدة الرجلين ، ثم لم يلبثوا طويلا حتى ذهبوا تاركين فى يد حسن ورقة من فئة الخمسين قرشا وسعادة تغمر كيانه وترعشه .

ولعق حسن شفتيه وهو يسير خلف الجمل والدنيا لا تكاد تتسع له فى طريقه الى قريته « نكلة » ويديه معلقتان على طرف العصا من خلف عنقه **وتمنى لو أن معه خوجاية من هذا النوع فيغلق عليها وعلى نفسه باب المندرة ، فلا ياكل ولا يشرب ولا يعمل ، وهو واثق تماما أنه معها لن يموت ، وقفزت الى ذهنه صورة زوجته «نفيسة»** فانقبضت نفسه وعاد يهوى بالعصا من جديد على ظهر الجمل حتى وصل الى القرية ، وعشرة أيام مرت عليه فى قريته لم يغادرها وهو جالس على الدكة امام المقهى عند حرف الترعة يحكى الناس قصة الخوجاية البيضة التى فى لون العسل والحليب والناس تسمع وتضحك وهو يروى التفاصيل . كيف رفعها بذراعيه ! وكيف طار الفستان الحرير ، وكيف ظهر الجسد البائع اللين الأملس كالحرير، وكيف اصابه الدوار ، و .. و .. ثم يسكت حسن فجأة كلما قصها مرة .. وهو يعض على شفتيه ، وفى آخر الليل كان يجمع طرف جلبابه بين أصابعه الخمسة وهو يزوم كالذئب الملـــــوخ ويشيح بيده فى وجوه الحاضرين وملء أشداقه عبارة واحدة :

ــ روحوا .. داحنا متجوزين غفر !

ولم يمض اسبوعان حتى طلق حسن زوجته ، وتفرغ للجلوس على المقهى ، رافضا العروض الكثيرة التى عرضت عليه لنقل المحاصيل بالجمل الى المدينة مكتفيا بالهرش فى ظهره بطرف العصا ، ورواية قصة الخوجاية البيضة لكل من يقابله في الطريق .

ومضى شهر وتزوج حسن فتاة بيضاء في لون البفتة ، نحيلة مثل العصا المشمش التى لا تفارقه ولكن الذين رأوه ليلة الزفاف أيقنوا من سعادته لعرض الابتسامة التى احتلت فمه ، وانقطع عن المقهى ، وذهب بالجمل الى المدينة والى القرى المجـــاورة ، والزوجة الجديدة تخرج الى الحقل ، فان حسن يملك قيراطين ووقته لا يسمح له بالتفرغ لزراعتهما ، ومرت شهور ، واصبحت الزوجة سوداء كغيرها من النساء فى القرية ، وكون الطين والتراب والعمل الشاق الطويل طبقة جديدة نحاسية اللون فوق وجهها ، وعاد حسن الى المقهى يحكى من جديد قصة الخواجاية فى شارع الهرم ، مضيفا للقصة فصولا جديدة : كيف مالت هى عليه ؟ وكيف ربتت على خده ؟ ومسحت بشفتيها على جبينه العريض ؟ ولم تمض أيام كثيرة حتى طلق حسن زوجته ، وفى آخر كل ليل يلعن أجداد الحاضرين وأذواقهم الفاسدة .

– دانتم متجوزين حدايات .

ومرت شهور طويلة وأصدقاؤه يهمسون فى اذنه بأسماء العذارى فى القرية ، وحسن لا يعجبه أحد ، ولا ترضيه واحدة منهن على الاطلاق كلهن غربان وكلهن « غفر » ! ولكن ثلاثة ارادب قمح كان ينقلها بالجمل من قريته الى المنصورية غيرت رايه وزحزحته عن مكانه ، فقد وجد ضالته فى المنصورية ، عذراء صغيرة فى الخامسة عشرة بيضاء جميلة ، شعرها ناعم طويل ، وعيناها واســعتان ، تعرف القراءة أيضا ولا تعرف كيف تعمل في الغيط ، وفى نفس المساء تزوجها حسن ، ثم عاد بها الى القرية بعد أيام ، وافتقد رواد المقاهى حسن ونسوا قصته ، فقد باع الجمل وهجر القرية كلها ، وذهب الى القاهرة مع زوجته الجميلة ، وعبثا حاول حسن ان يجد عملا ملائما ولكنه لم يستطع ، وثمن الجمل يتبخر من بين أصابعه

حتى لم يعد معه شيء وتقطع رقبة حسن ولا يعود الى القرية ، انه يستطيع أن يزحزح جبلا من مكانه ، انه قوى كالثور ، فلينزل الى الميدان بقوته .. وفى ميدان المحطة وقف حسن يرفع الحقائب على كتفيه ، ويخطف رجله ليحضر عربة ، ويدخل جيب حسن كل يوم من مطلع الشمس حتى آخر النهار خمسة عشر قرشا ، المهم انه يأكل وزوجته تنام شبعانة والحياة تمضى به وبها ، وهو فى غير حاجة الآن الى مواجهة الفشل ونظرات الناس فى قرية « نكلة » ، واحتمل حسن كل شيء فى سبيل البقاء فى القاهرة والاحتفاظ بزوجته ! وايام كثيرة أسود من الخروب مرت عليه ، ولا يأكل ولا يشرب ، يشاغب الشيالين ، وعساكر البوليس ، وأحيانا المسافرين ، وعرف حسن الطريق الى القسم ، ونام على أسفلت الحجز ، والزوجة الصغيرة يشحب لونها وتنحل ، والصفرة تضرب فى وجنتيها وتحت عينيها وعظام صدرها تبرز الى الأمام ، وعنقها أصبح كحبة السمسم وهى تبصق دما كل صباح ، وحسن يرى ولا يعرف ، ثم لم يلبث أن ماتت ذات مساء ، وعاد هو الى « نكلة » ، فقد وجد مبررا لعودته الى هناك ، وعاد رواد المقهى التى على حرف الترعة يلتفون كل مساء حول حسن وهو يروى لهم قصة الخوجاية البيضة التى فى لون العسل والقشدة واللبن الحليب ، واصبح فى جعبة حسن اقصص كثيرة عن « الخوجايات » في مصر ، وكلهن جميلات ، وكلهن مثل العسل والحليب ، وهن يسرن فى الطريق ، أنصـــاف عرايا واذرعتهن كالفطير ، وارجلهن كالسمن واصواتهن .. يا مغيث !! واشتغل حسن فى الجمعية التعاونية ، يحمل الكيماوى على ظهره من الجمعية الى البيوت ، وفى الليل كان أمامه متسع القصص عن خوجاية شارع الهرم ، وخوجايات مصر كلهن ، حتى التقى ذات مساء فى المقهى بجندى بوليس يعمل فى نقطة « نكلة » منقول حديثا من مصر ، شاب فى حوالى السادسة والثلاثين متوسط القامة

شاحب اللون ، فمه مفتوح دائما عن اسنان ذهبية ، وجد حسن فيه شيئا ينقصه ويثيره فقد كان يتحدث دائما عن مغامرات نسائية قام بها فى البندر وفى الريف ، وفي كل مكان ذهب اليه ، وفى جيبه عدد من صور النساء وكلهن بيضاوات وجميلات وسمينات أيضا، وريق حسن يجف كل مساء وهو ينظر الى الصور الكثيرة وكانها أوراق كوتشينة ، مدققا النظر فى الملاءة اللف ، والأخرى الأسبور ، والثالثة الفلاحة والرابعة والخامسة ، وحسن مشغول به وبصوره حتى أصبح يقلده فى حركاته ، ويختار نفس لون الجلباب الذى يلبسه عسكرى البوليس فى أوقات الراحة ، واصبح جيب حسن هو الآخر عامرا بصور كثيرة لشادية وماجدة وفاتن حمـــامة ، اشتراها جميعا من مصر فى مشوار له مع العسكرى الصـــديق ، وتساءل العسكرى مرة عن سر عزوف حسن عن الزواج ، وكان الجواب انه لم يعثر على بنت الحلال بعد ، ورشق العسكرى اصبعه فى انفه ثم فى فمه ، ثم خبط براحة يده على فخذ حسن ثم هتف قـائلا :

– واللى يجيبلك بنت الحلال ؟

وأجاب حسن بسرعة متسائلا في الوقت نفسه :

– بيضة ؟

– وشعرها طويل ، وحاجة عال العال .

وخطف حسن رجله الى مصر مع العسكرى ورآها وجلس معها، بيضاء كالنهار ، وجميلة ، وسمينة كالعجل البناتى ، وتعمل خادمة فى بيت احد الأثرياء ، وليست عبيطة مثل الفلاحات ، وقال حسن عال ، ورد العسكرى ، مبروك .. واخذها حسن فى ذراعه وعاد الى تكلة . ولم يعد أحد يراه فى المقهى ، أصبح من بيته الى عمـله ،

وجلبابه دائما نظيفة ، والمداس لا يبارح قدميه ، والترعة تستقبله كل صباح واصبحت سهرته فى نطاق ضيق ، مع العسكرى فى الليل عند حرف الترعة يشربون أقداح الشاى ويدخنون كراسى المعسل بالحشيش ، واغلق باب المندرة فى وجوه الجميع ، لم يكن احـد يستطيع الدخول فى المندرة الا العسكرى ذو الأسنان الذهبية ، فهو تقريبا ولى أمر العروس وهو وكيلها أيضا فى صيغة العقد ، وحسن نشوان بالزوجة الجديدة ولا يسمح لها بالعمل في الغيط ولا فى البيت ، ولولا العيب لطبخ حسن وكنس المندرة ، واعـــد الفراش وغسل الغسيل كله ، وجلباب واحد عند حسن وعشرة عند زوجته ورطل اللحم يأكل منه قطعة وزوجته تأكله كله ، وهى تامره وهو يطيع ، واحيانا تحدث المناوشات بينها وبينه ، والجيران يتسمعون من خلف الجدران ، وصوته خفيض ذليل ، وصوتها يلعلع بالشتائم ، واحيانا ترن الصفعات على قفاه وهو صامت وربمـا سعيد ، وحسن يكسب كثيرا من توصيل الكيماوى للمنازل فاصبح يعمل اليوم بطوله والمكسب لفتحية ، وأيام الأسواق يقترض حسن حمارا من القرية ويعود ومعه ربطة فى حجم شوال الكيماوى مناديل مزينة بالترتر وقطع طوب حمراء اللون لغسيل الكعبين ، وكحل ولبان وبخور ، والعسكرى معه يشترى له أرخص قليلا ويفسح له الطريق وينتقى له الألوان والأنواع ، وحسن يصفق برجليه ويديه فرحا للحظ الذى هبط عليه من السماء ، الزوجة الحسناء والخل الوفى ، وذات مساء وكان حسن فى قرية مجاورة ، وعاد بعـد العشاء بقليل وعندما انحرف الى داخل الدرب الذى يقطنه واصبح الى جوار الشباك ، سمع صوتا وهمسا فى الداخل رغم ان الظلام كان يسود المكان وتوقف حسن قليـــلا ينصت الى الذى يدور فى الظلام ، وسمع حسن ضحكا ومزاحا وتبين صوت العسكرى وصوت زوجته ، وفكر حسن ماذا يفعل .. ثم لم يلبث ان انحنى

جانبا فى الدرب وجلس على حجر كبير لا يدرى ماذا يفعل . . وأكثر من مرة وحسن يهم بالدخول الى المندرة ، ولكن شجاعته تخونه وقدماه تعودان به الى حيث كان ! وأربع ساعات طوال وحسن مسمر مكانه يرسم على الأرض أشكالا مختلفة بعصاة المشمش الطويلة ، ثم فجأة برز شبح في الظلام خارجا من المندرة ولم يكن سوى العسكرى فى جلبابه الأزرق المخطط بأقلام عريضة بيضاء ، ووقف العسكرى يتلفت حوله ، ثم مضى فى طريقه الى الترعة ودخل حسن بعد دقائق ! كانت زوجته نائمة ، وعلى وجهها تبدو نشوة وسعادة لا حد لها ، وقد ازينت بمنديل جديد ، وفى عينيها كحل غامق ، وكعباها نظيفان من اثر الدعك الشديد ، وايقظها حسن فى قسوة ، ولكنها عندما استيقظت لم يستطع أن ينظر اليها ، وجلس حسن امامها وهى نصف نائمة ممددة فى ارتخاء لذيذ . . وسألها حسن فجأة دون ان ينظر اليها :

— مين اللى كان هنا النهاردة ؟

وردت هى بعد فترة :

— مفيش حد .

وعاد هو يسأل وهو لا يقوى على النظر اليها :

— مفيش حد يعنى ايه ، أمال توفيق العسكرى كان بيعمل ايه؟

وردت هى مستنكرة :

— توفيق العسكرى ده ايه ، مش صحبك ، وانت اللى داخل معاه خارج معاه ، كمان ده راخر ، والنبى تتمسى كده وتنام ، وانت باين عليك سكران .

وبسرعة عجيبة لهفها حسن بكفه على صيدغها ، ثم انهال

عليها بالصفعات واللكمات وهى ترد له الصفعات وتعضه فى ذراعه » .

واستيقظ الجيران على الأصوات المنبعثة من مندرة حسن وضاع الطرق الذى استهدف له باب حسن ولم يفتح ليلتها لأحد ، وخرج حسن فى الصباح الى الجمعية التعاونية ، ووجهه يبدو عليه الاجهاد الشديد ، وعيناه حمراوتان بلون الدم ، وجلبابه ممزق ، حتى المداس نسيه في المندرة ، ولم يحمل على ظهره جوالات الكيماوى ولم يشرب الشاى كما اعتاد ، بل جلس يرسم على الأرض اشكالا بطرف عصاة المشمش التى كان يضرب بها الجمل ويهرش بها ظهره فى الزمن الذى مضى ، وتحسر على الزمن الذى طواه لاهثا منذ اعوام ، وعلى المعروف الذى قدمه للدايخة التى كانت تعمل خادمة فى مصر وفكر فى طريقة للانتقام من توفيق العسكرى ، وفكر فى أن يقتله ، أو يذهب الى المديرية وينقله الى مكان بعيد ، أو يطلق زوجته ، أو يذهب اليه فى منزله ويضربه ويفضحه ، ولكنه أسف بينه وبين نفسه لعجزه عن الانتقام، فتوفيق قوى ، وهو عسكرى ايضا يستطيع ان يؤذيه ، ورشق حسن عصاه المشمش بين جلد ظهره وجلبابه الممزق وراح يهرش بقسوة كما كان يفعل من قبل ، وأحس بالنشوة تسرى فى كيانه، لم خطر له أن يهجر القرية قبل أن يستيقظ الناس ليتوارى عن عيونهم ، ولكنه لا يملك شيئا ، وليس أمامه ما يفعله اذا هرب، والتجربة البشعة التى مرت به فى مصر مازالت ماثلة لعينيه ، ولعن حسن مصر والخوجاية والشيطان الذى ألقى بالعسكرى في طريقه، وتمنى لو يستطيع استرضاء زوجته إفترضى ، وتمر الأيام فينسى وتنسى ، ثم يأخذ حذره بعد ذلك ، فيقاطع العسكرى ، ويحرص على زوجته ، كانت الشمس قد ارتفعت فى الأفق وألف فكرة تطوف فى رأس حسن والعصا المشمش فى يده يرسم بها على

تراب الطريق الزراعى رسوما مختلفة وخطوطا متشابكة ، وفجاة برز توفيق العسكرى من عند القنطرة مهرولا بجلبابه وعلى وجهه يبدو الشر العنيف ، وابتسم حسن ابتسامة بلهاء عندما اقترب منه توفيق والشرر يتطاير من عينيه ، ومن أنفه ينبعث دخان كثيف وفكر حسن فى أن يطلق ساقيه للريح هاربا من القرية ، ولكنه لم يستطع حتى تحريك أصابعه الضخمة ، ولم يتحدث توفيق ولم يفتح مجالا للمناقشة ، بل انهال على رأس حسن ووجهه باللكمات ، وركله فى بطنه بالحذاء وهو يزمجر أثناء ذلك كله :

ـ تفضحنى وسط الناس يا ابن ....

وحسن يصرخ ويستنجد بطوب الأرض .

ـ حقك على يا عم توفيق ، أنا غلطان يا عم توفيق .. ورفعه توفيق من جلبابه فأوقفه على قدميه وكانت الناس قد التفت حولهما وجاءت فتحية أيضا تسبه وتضربه ، وتوفيق يقسم باغلظ الايمان انه لن يتركه الا فى النقطة . وتدخل الناس و « معلهش ياسى توفيق » ده غلبان « يا شاويش توفيق » .

ورضى توفيق أخيرا أن يتركه على شرط .. أن يدفع ما عليه !! ونظر الناس الى حسن وهو يغض بصره نحو الأرض ، علم الناس فى ذلك الصباح أن توفيق يدينه في عشرة جنيهات دفعها ليلة الزفاف ليدفعها حسن مقدم الصداق لزوجته ، ونام حسن فى تلك الليلة وفى الليالى التالية فى الجمعية ثم جاع القيراطين ليدفع مؤخر الصداق والدين الذى عليه !

وظلت فتحية في المندرة وانتقل اليها توفيق العسكرى ، ومضت شهور طويلة وحسن بلا بيت ولا عمل ، وتعلم حسن الصلاة ، فقد كان ينام فى المصلية التى على حرف النهر خارج القرية ، وقال الناس انه « مخاوى » .. احدى جنيات البحر بيضاء

وشعرها طويل وأسنانها لامعة ، وأظافرها حادة قاتلة ، وانها تخرج اليه فى الليالى القمرية عند المصلية ، وعندما مرض العسكرى بعد ذلك ومات قال الناس انه قد استعان بالجنية للانتقام منه ، وانه سينتقم غدا من زوجته ، ولكنها لم تلبث أن غادرت القرية ذات صباح الى حيث لا يعلم أحد ، وفي بعض الليالى كان الناس يذهبون الى حسن فى المصلية وكان يحكى لهم دوما حلمه الذى رآه فى الليل وهو نائم عندما جاءه سيدى الخضر وانباه بقرب نهاية العالم وان الأرض لن تلبث ان تزول بما فيها ومن فيها ، ثم لا يلبث أن يسأله أحد الحاضرين : .

ـ وايه حكاية الخوجاية ؟

ويحكيها حسن .. ولكن بأسلوب آخر ، وذقنه التى طالت تضرب فى صدره الذى ضاق ، وعبارة واحدة يختتم بها الحديث دائما :

ـ اخص على الخواجات وعلى سنينهم ، دول ناس مسخرة .

كان الرجال الذين كانوا على المقهى وقت أن مر النعش في طريقه الى المقابر ما زالوا فى أماكنهم عندما هبطت النسوة من فوق الأكمة الى القرية حاملات المشاعل وقد أطفئت جميعها الا مشعلا واحدا لينير لهن الطريق ، وعندما أصبحن فى محاذاة الرجال صاح أحدهم متهكما :

ـ الله يرحمك يا حسن .. دول صحيح كلهم غربان ! وعض الآخرون على شفاههم وهم يهرشون فى أقفيتهم .. وتذكروا كيف كانوا يسخرون بحسن وبقصته ، وان كان كل منهم يتمنى في أعماقه أن يكون له امرأة بيضاء مثل اللبن الحليب شبيهة بتلك التى رآها حسن واحتضنها بين ذراعيه ذات صباح في طريق الهرم ..

بعد التل الكبير بعدة كيلو مترات ، ترقد قرية المحسمة ذليلة بين التلال ، فتبدو منازلها المتداعية الى جوار سلسلة التلال الرهيبة وكأنها عابد صينى يركع فى فناء معبد بوذى قديم .

واهل المحسمة لا يعرفون أن لقريتهم شأنا عظيما ، ولم يسمعوا أن البلاغات البريطانية التى صدرت من جانب القيادة فى فايد خلال معركة القنال قد ذكرت اسم قريتهم اكثر من مرة ، ولم يسمعوا كذلك بأن محمد حسنين وسعدى كامل اللذين قتلا خلال المعركة قد صدرت بأسمائهم وقصص استشهادهم ملاحق خاصة من صحف مصر .

ولم يسمع اهل المحسمة بشىء من هذا . فهم لا يقرأون صحفا ، والراديو الوحيد فى قريتهم فى دكان الشيخ عبد القادر ، وهو رجل لا يحب الليل ويعتقد أن دوره فى الحياة يتوقف عندما

تغيب الشمس .. ولكنهم رغم هذا الجهل المطبق بأهمية قريتهم وذيوع صيتها ، كانوا يعلمون حقيقة واحدة تمس القــرية من بعيد .. خلاصتها ان الانجليز يستخدمون الجبل القــريب من القرية لاحـــراق بقايا الأطعمة . كانوا جميعا يعلمون السر .. وكانوا جميعا يتوجهون تحت جنح الظلام الى سفح الجبـــل ، ينبشون الأرض بأظفارهم ، بحثا عن شيء من الطعام لم تصــل اليه النار . وكانوا دائما يجدون ، وكانوا دائما يتعجبون لبلاهة هؤلاء الناس .. الانجليز . ولو انهم وزعوا هذه الأطعمة على سكان قرية المحسمة .. مثلا . لنال الانجليز ثواب الدنيا والآخـــرة !! ولكن ، هكذا شأن الأقوياء .. والانجليز على الأقل أقوى من أهل المحســـمة ..

المهم أن أهل القرية كانوا يعلمون انه فى ساعة معينة من ساعات النهار تقبل عربة أو اكثر ، من عربات الجيش البريطانى فتعبر الكوبرى الخشبى على ترعة الاسماعيلية ثم تنحـــرف يمينا نحو القرية ، ومن هناك الى سفح الجبل ، حيث تتم عملية احـــراق الأطعمة على مشهد من أهل المحسمة ، وأحيانا كانت العـــربات تتأخر قليلا عن موعـــدها ، وأحيانا أيضا كانت تأتى مبكرة ، ورأى أهل القرية زيادة في الاحتياط اختيار واحد منهم كل يوم ليقف على رأس الكوبرى المتهالك ، يرقب عربات الانجليز وهى فى طريقها اليهم ، وألف الناس فى المحسمة أن يستمعوا الى صراخ « الديدبان » يعلنهم فيه بنبأ ظهور العربات على الطريق .

وفى ذلك الصباح السعيد هتف الديدبان :

ــ العربية جاية ..

فهرع الناس صوب الكوبرى يشهدون المنظر بأنفسهم ، وعندما راوها سعدوا بمرآها ، فقد حدث أن انقطع ورود العربات سبعة أيام كاملة .

ولم تكن عربة واحدة ، كانوا ثلاثا .. وعندما أصبحوا فوق الكوبرى تماما سمع اهل المحسمة صوتا كالرعد ، فقد تهشم الكوبرى وسقطت عربتان فى الترعة واستدارت الثالثة عائدة بأقصى سرعة ناحية المعسكرات .

ولم ينتظر اهل المحسمة شيئا ، فقد خلعوا ملابسهم جميعـــا والقوا بانفسهم فى الترعة . وانتشلوا السائقين .. وراح كل منهم يجمع علب الصفيح التى تطفو على ســـطح الماء ، ويغـــوص فى الأعماق لينتزع من طين الترعة العلب الضخمة التى استعصت على التيار . وعاد اهل القرية الى منازلهم يحمـــل كل منهم مجموعة من علب الصفيح .. تحوى لحما محفوظا لم تمسه النار من قريب أو بعيد ..

مجانين هؤلاء الانجليز .. هكذا قال أهل المحسمة وهم يلتهمون فى شراهة غذاءهم من محتويات العلب الصفيح ولو كان هذا هو الطعام الفاسد .. اين اذن هو الطعام الصالح !

لابد أنها حيلة انجليزية ــ هذا قال أحدهم ــ ولابد ان الكبار الانجليز يتعمدون احراق هذه الماكولات ، حتى لا يصاب الجنود بالتخمة . واكد هذا الذى قال ــ قوله بحكايات طويلة عن خدع الانجليز .. فقد سبق له أن عمل عندهم فترة خلال الحرب ..

المهم ان قرية المحسمة سعدت ذلك اليوم وابتهج اهلها .. فقد حشوا بطونهم بما زنته خمسة اطنان من اللحم اللذيذ السهل المضغ وهى كمية كبيرة لم تكن تحلم القرية ان تستهلكها ولو بعد جيـــل .

رجل واحد شهد القصة من البداية ولكنه لم ينل شيئا . فقد كان عبد المقصود يجلس تحت الشجرة عند الكوبرى عندما سقطت العربة ، وكان هناك عندما اندفع سكان القرية كالسيل المنهمر صوب الترعة . وكان هناك عندما خرجوا جميعا من الماء منطلقين بأقصى قوتهم متدافعين كأنهم في يوم الحشر الى منازلهم . كان هناك ،

وراى كل شيء . ولكنه لم يأخذ شيئا . فعبد المقصود بلا ساقين ، وصرخاته لم تستطع الوصول الى احد وقت الصراع الرهيب حول اقتناص اكبر عدد ممكن من الصناديق العائمة . ورغم ذلك فقد توسل عبد المقصود لطوب الأرض فى المحسمة أن يعطيه أحد ، ولو علبة ليرى ما بداخلها . ولكن لم يرض أحد منهم .

ان المسألة مسألة رزق وهو نفسه كان هناك . ولابد أنه كان مكتوبا عليه الا يأخذ شيئا . ان لكل منا نصيبه فى الحياة ، وسيأخذ كل منا نصيبه . هكذا قال الذين راحوا يفلسفون الأمر لعبد المقصود .

كانت الشمس قد بدأت تختفى خلف قمم التلال المحيطة بالقرية ، عندما وصل عبد المقصود الى مكانه بجوار الترعة . وكان الجنود الانجليز قد أوشكوا على الانتهاء من ترميم الكوبرى . حين راح عبد المقصود يفكر فى الأمر مليا ، وعيناه تبحثان فى قلق فوق سطح الماء عن شيء من حمولة الصباح . ولكن صرخة اليمة قطعت عليه تفكيره . ولم تنقطع الصرخة ، بل تبعتها صرخات ، وشاهد عبد المقصود اشباحا تهرول وسط القرية ، واشباحا تسقط على الأرض . والصراع يعلو وينتشر . وكأنما شب حريق هائل فى أنحاء القرية .

وزحف عبد المقصود من مكانه نحو قلب القرية مستفسرا عن حقيقة الأمر . وكان هناك حريق .. ولكن فى بطون أهل القرية . فقد احس كل منهم فجأة بخناجر حادة تمزق أحشاءه . وارتمى كل منهم يفرغ ما فى جوفه من طعام . وخرج بعضهم يجرى كالمجنون فى أنحاء القرية بحثا عن شيء لا يدركه . ولم تمض ساعات حتى كانت قافلة من العربات تجرى على الطريق بسرعة نحو القرية ، ولكنها كانت عربات من نوع جديد . وكانت أجراسها تدق دقات منتظمة رهيبة . وعندما وصلت راح الرجال الذين كانوا بداخلها

يحملون أهل القرية على نقالات الى جوفها . وعبد المقصود يشهد كل ذلك عن كثب ، فهو الوحيد الذى لم يشعر بألم . وان كانت أمعاؤه تلتوى من الجوع ورنت كلمة « تسمم » فى أذنه فى الوقت الذى شاهد فيه رجال الاسعاف يحملون معهم ما تبقى من علب اللحوم المفتوحة والمقفلة . علب كثيرة تكفى لاطعام قبيلة . ولكن من اين جاء التسمم لأهل القرية . هل جاءهم من العلب ؟ لا يمكن . ان عبد المقصود يذكر جيدا أن أهل القرية يأكلون هذا الطعام منذ أن عسكر الانجليز الى جوارهم فلم يصبهم التسمم يوما . لابد انه المغص اصابهم من جراء مياه الترعة الباردة فى هذا الوقت من الشتاء .

وزحف عبد المقصود نحو الحائط ليفسح الطريق لعربات الاسعاف التى انطلقت مسرعة وسقطت علبة كبيرة من العربة الأخيرة .. علبة كاملة لم تفتح بعد ، تدحرجت على الطريق ، واستقرت الى جوار عبد المقصود . ومد يده فالتقطها . وراح يقلبها بين يديه يتفحص جوانبها . ثم زحف من جديد على أرض الشارع فى طريقه الى مكانه المعهود عند جسر الترعة . وعندما وصل الى هناك كان الظلام قد بدأ ينشر أرديته على القرية وعلى التلال المحيطة بها . والجنود الانجليز قد أوشكوا على ترميم الكوبرى . واسند ظهره الى جذع الشجرة العجوز .. وابصر قافلة عربات الاسعاف تنطلق أمام عينيه من بعيد نحو التل الكبير . وأضواؤها تبدو خافتة . ورنت فى أذنه « قرقرة » بطنه الخاوية كأنها صرخات أهل القرية . ومد يده فالتقط حجرا دق به العلبة فأحدث بها ثغرة واسعة . وغاص بأصابعه الخمسة فى جوفها . وراح عبد المقصود يمضغ اللحم الطرى فى لذة فائقة . واحس بالراحة تسرى في كيانه ، وبالسعادة تغمر نفسه . والقى عبد المقصود بالعلبة الفارغة . وتنهد بارتياح عميق . وتدحرج رأسه الكبير على صدره البارز العظام . وراح عبد المقصود فى نوم عميق .

لم يغمض لحسن جفن طول الليل من الفرحة ·· ان أمه مريضة وسيذهب الى مصر فى الصباح ليحضر لها الدواء من مستشفى الانكلستوما ··

وراح حسن يحلم طول الليل وهو مستيقظ مغمض العينين بأم الدنيا والشوارع النظيفة ومركبات الترام والعيش القمح الملقى على الأرصفة والفول المدمس المعروض للبيع فى غير موعد السوق ·

ولعق حسن شفتيه وهو يحلم بالنساء البيض الجميـلات الممتلئات الضاحكات فى دل شديد .

وقبل أن تطلع الشمس كان حسن غاطسا فى الترعة حتى أذنيه ، ثم ما لبث أن دخل فى جلبابه وسار على الجسر الى محطة الأوتوبيس .

وجاءت أول عربة خالية تماما من الركاب فقفز على السلم ، ولم تكد العربة تقف حتى انطلقت من جديد بأقصى سرعة فانكفأ

على وجهه بين الكراسى وارتطمت رأسه بأرضية العربة فجرحت شفتيه وجلطت ذقنه . وطارت الطاقية الصوف من فوق رأسه ، وتدحرجت القروش الخمسة مع الزجاجة التى فى يده في مجارى ارضية العربة الخشب . .

وزحف حسن على ركبتيه بحثا عن القروش الخمسة متحسسا بين لحظة وأخرى شفتيه وذقنه ، ماسحا الدم الذى علق بأصبعه فى جلبابه الأزرق الرقيق . .

وعثر حسن أخيرا على القروش الخمسة والطاقية والزجاجة ، فتربع فوق أرضية العربة مستندا بكوعه على أحد الكراسى الجلد . . وتقلصت عضلات وجهه من الألم والعربة تهتز به وهى تتدحرج مسرعة بين الخضر التى انتشرت على الطريق . . وأصبحت العربة وكأنها كرة شراب يشوطها لاعب ماهر . . ولولا العيب لصرخ حسن بأعلى صوته فقد تفسخت عظام ظهره وهو يقفز مع العربة الى أعلا ، ثم يهوى بشدة على أرضيتها والطاقية الصوف لا تستقر فوق رأسه ، وبدنه كله يهتز ويرتعش كأنه قابض بكلتا يديه على سلك كهربائى صاعق . . وعيناه تدمعان من غبار الطريق الزراعى ، والكرب يحيط به من كل جانب .

وجاء الكمسارى اخيرا فطلب اليــه أن يجلس على الكرسى ، وتحمل حسن الارهاق الشديد وهو يحاول النهوض من مكانه ، وما ان استقر على الكرسى حتى أحس بنشوة تسرى فى كيانه ، وبراحة شديدة تغمر بدنه كله . . ومد حسن يده بالقروش الخمسة ، وطلب الكمسارى خمسة ونصف ورفض حسن أن يدفع ، وأصر الكمسارى وأقسم حسن بجميع الأولياء انه لا يملك نقودا من أى نوع ، ولكن الكمسارى نفخ فى الصفارة ، وتوقفت العربة ، واكثر من ربع ساعة وحسن يقسم والكمسارى يصر . . حتى دفع حسن

النصف قرش الباقى ، وعندئذ عادت العربة تنهب الأرض . . وسرح حسن ببصره عبر الحقول ، وتعجب لأنها تبدو وهو داخلها غيرها وهو على الأرض . وركبتيه غائصتين فى الوحل . . انها الآن تدور فى رشاقة ، وكأنها راقص مجيد يلعب العصا ، او شيخ فى حلقة ذكر . . .

ونظر أمامه والطريق الطويل يجرى في الطريق المضاد ويختفى بسرعة خلف العربة . . والعربة منطلقة وكأنها ستتحطم حتما على الشجرة والنخلة والبيت الذى يقع على حرف الترعة .

ودارت رأس حسن فى كل اتجاه وانتابه الغثيان فتمدد على الكرسى ؛ ولكن الدوار استبد به ؛ وتمنى لو ينزل من العربة ، ولكن مصر ما زالت بعيدة ، فانتظر على مضض ، مطبقا اسنانه على اطراف منديله المحلاوى . . وراح يدعك فى ساقيه وفى عينيه ويهرش فى قفاه ، ويقرأ الفاتحة لسيدى بدر أن ينجيه من هذا العذاب .

ورقص قلب حسن لمنظر البنايات الشاهقة والمحلات الكثيرة المتراصة بجوار بعضها ، والشارع المكتظ بالناس وكأنه سوق . . وهب واقفا على الفور وصياحه يعلو على صوت العربة آمرا السائق بأن يتمهل لحظة حتى يتمكن من النزول ، وعندما قفز من داخل العربة الى الشارع الواسع العريض وقف برهة فى مكانه يتلفت حوله ليرى معالم المكان . . ثم تمطى فى خمول ، وسار فى الطريق يسأل عن مستشفى الانكلستوما .

واكتشف حسن انه ليس في مصر ، وانه فى شبرا البلد ، وان عليه أن يركب الحلزونة أو يمشى اكثر من ساعة الى المكان الذى يريد .

وسار حسن فى الطريق يسأل بعد كل خطوة كل عابر سبيل حتى وصل المستشفى . . ووقف فى الصف الطويل ، ودفعه الناس

الى الامام والى الوراء واخرجوه من الصف اكثر من مرة ، وضربه العسكرى الذى يحافظ على النظام ، ووقعت الزجاجة وأنكسرت .. وخرج حسن من الصف ليشترى زجاجة ثم عاد .. عاد ليكتشف انه فى القصر العينى وليس فى الانكلستوما ، وان الدواء الذى يريده لا يوجد الا هناك ..

وجرى حسن الى الانكلستوما .. وتضرع للتمورجى والحكيم والباشحكيم ، وأبرز لكل من قابله روشتة حكيم المركز الاجتماعى .. واخيرا اعطوها له .. فخرج من المستشفى مجهدا عليلا .. وراح يبحث عن غذاء .

واشترى حسن ثلاثة ارغفة قمح وبقرش طعمية ، وجلس الى جوار الحائط وزجاجة الدواء الى جانبه .. وراح يزدرد الطعام فى نهم شديد .. واضطجع حسن بعد ان انتهى من غذائه مسندا ظهره للحائط ، وراح ينظر الى الوافدين على محـــل الطعمية للغذاء .. باعة خيار وعنب ، وأفندية وعمال بياض ، وحسد حسن هؤلاء الناس ، انهم فى نعمة ، فالغذاء متوفر ، والدواء فى متناول ايديهم .. وهم يركبون الترام ويأكلون العيش القمح ، والنقود تجرى في ايديهم . وتمنى حسن لو تموت أمه لينفـــذ مشروعه . فيهجر القرية الى مصر ، ويشتغل فى محل اكل وشرب ، ويتزوج ويسافر الى القرية مرة كل عام فى جلباب نظيف وحذاء جميل . وراسه عارية كما فعل عبد المحسن وقاسم وهلال .. وخلع حسن حذاءه ليخرج منه الحصا والتراب الذى تسلل اليه من الشقوق الكثيرة التى تحتله .. ثم هرش ظهره فى الحائط ، ونهض قائما ليعود الى القرية ..

وفى الطريق الى محطة الحلزونة ، لم ينس حسن ان يعرف معالم الطريق الى المستشفى ، دكان عصير قصب ، ومقهى ، وبائع كفتة

على عربة ومحطة ترمواى ، وبيت اصفر ذو ثلاثة طوابق .. ثم راح حسن يقرأ اللافتات المنصوبة أعلا المحلات ، سجاد وكليم ، بقالة النور ، مقهى الكمال ، حلاق للسيدات .. وتوقف حسن كثيرا عند هذه اللافتة ، ورشق أصبعه فى منخاره ، ثم فى فمه ، وهو يتلصص النظر من خلف الزجاج الى داخل المحل ليرى كيف يحلق النساء ، ومن الذى يحلق لهن ، نساء أو رجال ؟ ولكنه دهش عندما راى داخل المحل محلا آخر أسدلت على بابه ستارة من الخرز الملون .. ولا يكاد ما وراء الستارة أن يبين لعينيه .. وتعجب حسن من هذه الزجاجات الحمراء والخضراء والصفراء وكانه معمل طرشى لا محل حلاق .. وتذكر حسن حلاق القرية أمام السيد .. وابتلع ريقه فى حسرة ومضى في الطريق .. وما لبثت عيناه ان كلت النظر الى فوق فسار هادئا مطاطئ الرأس فى خمول .. ولكن بلاط الأرض الملون استرعى نظره من جديد ، وضحك حسن فى سره لغباء هؤلاء الناس الأثرياء الذين ينفقون النقود فى الأرض فيغطونها بالبلاط ليسير عليه الناس بالأحذية وبالأقدام الموحلة .. وانحنى يتحسس البلاط الناعم الذى لا يوجد مثله فى دوار العمدة ، وتمنى لو ينام عليه ليلة باكملها دون فرش ولا غطاء .. ثم سار ليقطع الطريق الى الرصيف الآخر ، ولكنه فوجئ بعربة تمر من امامه كالريح ، وانخلع قلبه وغاص بين قدميه وارتعشت يداه فسقطت الزجاجة وتدحرجت على الأرض الصلبة الناعمة فتهشم عنقها وسال الدواء .. وارتمى حسن على الزجاجة يمسك بها قبل ان تسيل الشربة كلها .. وكادت اذناه تصابان بالصمم ، وعشرات العربات تطلق أبواقها من فوق راسه ، وهو ممدد على الزجاجة يتفحصها وسط الطريق ، وشاطته قدم صاحب عربة فكومته على الرصيف يئن من الألم والحسرة على كسر الزجاجة ، وضياع الشربة على الأرض ، والمشوار الاغبر .. وترك الزجاجة جانبـــا وراح

يتفحص جروحه التى فى الساق والتى فى الجنب والأخرى التى فى الساعدين ، وبللها بريقه ثم رش عليها بعض التراب ، وحمد الله على انها جاءت سليمة ، وقرأ حسن الفاتحة لسيدى بدر وهو يسير فى الطريق ، محتضنا بقايا الزجاجة وفى أعماقها يتأرجح بقايا الدواء .

وصل حسن الى موقف الحلزونات عند العصر ، فوجد عربة على وشك القيام وقد اكتظت بالناس .. وفكر فى أن يتأخر قليلا ليركب العربة التالية ، ولكنه خشى أن يهبط عليه المساء وهو فى العربة ، فصعد الى العربة المزدحمة واختار مكانا داخلها وجلس على ارضيتها .

ولم يلق حسن بالا للأقدام التى راحت تدوسه .. فقد كان فى شغل شاغل عنها بالزجاجة وما فيها من دواء ..

ومضت العربة مزدحمة خانقة ، وجاء الكمسارى فسلمه خمسة قروش فلم يحتج ،واغتاظ حسن من الكمسارى الذى ركب معه فى الصـــباح ..

وفجأة وقبل أن يطوى حسن التذكرة ، هب مذعورا وسط العربة والدواء يتطاير من الزجاجة على ملابس الركاب .. فقد سمع صوت انفجار كأنه طوربيد ، وصوت العجلات وهى تزحف من شدة الفرامل على الطريق الأسفلت .. ورأى بعينيه الشجرة التى كادت تصطدم بالعربة وهى تنحرف من شـــدة الانفجار عن الطريق .. وبصق حسن فى عبه وتمتم بالفاتحة لسيدى بدر الذى انقذ الجميع ، وأخذ الركاب يغادرون العـــربة ويتجمعون على جانب الطريق فى انتظار العربة التالية .. ولكن حسن انتهز فرصة خلو العربة من الركاب فقعد على الكرسى الجلد والزجاجة تحت الكرسى ، وأحس بلذة غامرة فقد كان الكرسى مريحا ، غاص فيه بدنه كله ، وأخذ يهز الكرسى فى حركة رتيبة .. والنـــوم

يغلب عليه .. وتمنى حسن لو أن له حلزونة من هذا النوع فيذهب بها الى مصر .. وينام داخلها فى المساء على الكرسى الجلد .. ويكسب منها نقودا كثيرة يبنى بها منزلا فى مصر ..

ولم يلبث أن غلبه النوم فراح فى نوم عميق .. وعندما استيقظ كانت العربة تطوى الطريق والهواء المنعش البارد يهب عليه ، ودقق حسن النظر فى معالم الطريق فاكتشف انه على وشك الوصول ، وانه سيغادر العربة والكرسى الجلد ، والنوم المريح .. وتذكر حسن – ولا يدرى لماذا – القاعة التى ينام فيها .. والروائح الكريهة ، والأرض الصلبة ، ورائحة ابيه وامه واخـــوته السبعة ، ورائحة زلعة المش التى تحتل ركنا فى القاعة .. ومشنة العيش التى تتأرجح فى وسطها ، والحصيرة الملفوفة فى ركن منها .. وعاد حسن يفرك فى عينيه ، وتذكر الزجاجة تحت الكرسى ، وعندما انحنى ليلتقطها لم تكن هناك .. وأكثر من عشر دقائق وهو يبحث زاحفا تحت الكراسى عن الزجاجة حتى وجـــدها مقلوبة على جنبها تتدحرج فى بطء نحو اليمين والشمال ، وليس فى جوفها سوى نقطة واحدة من الدواء .. واحتضن الزجاجة الفارغة وهبط من العربة ، والكمـــارى يلعن أجـــداد الذين نســـلوه ..

وهرش حسن فى بطنه وتثاءب اقبل أن ينحدر نحو الترعة ليملأ الزجاجة من مائها .. وسرعان ما ارتقى المنحـــدر من جديد .. والزجاجة تحت ابطه .. وهو يسرع الخطى نحـــو البيت وفمه الواسع مفتوح ولسانه يتذوق ما فى الزجاجة ..

وعندما نظر حسن الى البيت تمنى لو أن الداء الذى فى امعاء امه يغلبها فتموت ، وطاف بخياله نحو مصر والعيش القمح .. والفول المدمس المعروض للبيع فى غير موعد السوق ..

تجاوبت جدران السجن الصماء باصداء صرخات الحراس الرهيبة ووقع أقدام المجرمين المثقلة بالحديد ، هم يجرونها فى ردهات السجن الطويلة نحو مصيرهم الذى ألفوه ، وانتهت الضجة فى لحظات ، فقد اصطف المسجونون فى طابور بائس طويل ينتفضون من موجة البرد الشديدة التى وفدت فجأة على المدينة وكان الطقس بالأمس دافئا جميلا ، ولكنهم سرعان ما نسوا البرد ، فقد دبت الحرارة فى أوصالهم المرتعشة وهم يسيرون فى حماس شديد نحو الجبل ، وكأنهم فرقة من الجند عائدة من ميدان القتال الى المدينة . .

ولم يكن ثمة ما يثير انتباه أحد بين هذا الطابور التعس من الرجال الأشقياء ، اذ كل شىء يسير فى نظامه المعهود ، على الطريق الحجرى الطويل بين سور مضروب من الأسلاك الشائكة وبنادق الجند المصوبة فى خمول الى صدور المجرمين .

ثمة رجل واحد كان يسير فى نهاية الطابور ، وكل شىء يبدو جديدا أمامه وغير مألوف لديه .

فقد كانت قدماه تصافح أحجار الطريق للمرة الأولى . ولم يكن تشيع فى وجهه علامات الرضا كغيره من أفراد الطابور ، بل كان يبدو قلقا وأسنانه الصغيرة الحادة كأسنان فأرة تقضم أظافر أصابعه الخمسة فى عصبية محمومة ..

لقد كان كل شىء يبدو أمام عقله الصغير غريبا هذه المرة .. لقد دخل السجن من قبل مرات عديدة .. وكان هو الذى يسعى اليه .. ولكنه فى هذه المرة فى الليمان .. وهؤلاء الذين يمشى معهم وحوش وليسوا آدميين ، وكل منهم نجا من حبل المشنقة بأعجوبة .. انهم موتى غير أن قلوبهم حية تنبض بالحقد المرير ..

وتعجب حسن لهذا القدر العجيب الذى جمع فى هذا الطابور عددا وفيرا من القتلة ـ وهو أيضا .. قاتل مثلهم .. ولكن ..

وصرخ حسن من الألم ، فقد هوت على كتفيه كعوب بنادق الجند ، فقد أخل حسن بالنظام وهو « سارح » فى وجوده الضائع .

وعاد حسن يجرى وهو يلهث ليلحق بالقطيع البائس ، وعندما لحق بمكانه فى الطابور لم ينظر اليه أحدا ولم يهتم به انسان . .

ان كل فرد فى الطابور لا يهتم بغيره ، ان نفسه فقط هى المحور الذى تدور حوله حياته .

وعاد حسن من جديد يقضم أظفاره وعقله يقضم من أحشاء الماضى قصة وجوده الذى ضاع .

انه منذ عشرة أعوام وهو يمارس الحياة فى حى السبتية ، وكان يمارسها قبل ذلك بسبعة عشر عاما .. غير أن فصولها الأولى ضاعت ولم تبق منها الآن الا صور باهتة . غير أنه منذ عشرة أعوام وهو يذكر جيدا انه بدأ يمارس الحياة بوعى لكل ما يجرى حوله ..

كان فتى قويا شديد البأس كأنه ضبع ، وعندما واجه الحياة كانت نفسه تفيض آمالا عذبة : مسكن فسيح ، وعمل مستقر ، وزوجة تملأ بيته .

ولكن كيف السبيل الى تحقيقها بالمال .. ثم اين المال ؟ بالعمل .. صحيح أن حسن عمل خبازا مدة طويلة ، يعجن كالنساء مع خمسة من أقرانه ، وقوته تذوب مع الليل الكئيب ، وخمسة عشر قرشا هى كل ما يناله حسن فى الصباح ..

خمسة عشر قرشا .. وعمل تافه كالنساء ..

وهكذا أصبح حسن « قهوجى » فى حى السبتية .. عمل انظف واكثر راحة ولائق بالرجال ، والثمن واحد .. خمسة عشر قرشا ..

وفى المقهى يجلس عبيد وأصابعه العشرة تزينها خواتم من ذهب .. والصديرى الشاهى يبرز من فتحة جلبابه الجوخ . واللاسة الحريرية تلتف حول رقبته ، والحذاء اللامع يبرق فى قدميه . وهو لا يعمل ولا يجرى ، وانما يوزع الحشيش على الراغبين ويكسب ويتزوج ويطلق ، وله فى السبتية أكثر من عشيقة وأكثر من تابع ذليل .

وترك حسن العمل فى المقهى وجلس فيها وأصبح جيبه عامرا بلفافات الحشيش ، وعرف المارة طريقه اليه . ولم يعد حسن

يجرى ولا يلهث ، وهو يكسب جنيها واحيانا اكثر ، ولسوف يهبط الثراء عليه يوما ما ، فهو ليس اقل من عبيد ، بل هو اقوى واكثر شبابا .. ولكنه أفقر ، والزمن الذى يجرى به كفيل بحل المشكلة ولكن الزمن كان يجرى به فى الطريق المضاد ، فقد وقعت « كابسة » على المقهى وضبط حسن ، وفر عبيد قبل أن يحضر البوليس فقد كان يعرف .

وهكذا دخل حسن السجن أول مرة ، ولم يمكث طويلا ، فقد قضى الشتاء بطوله ثم عاد الى السبتية مع الصيف ..

ولم يفلح حسن المرة فى أن يصبح تاجر حشيش ، فهو مفلس ليس معه شىء ، والتجار الكبار رفضوا التعامل معه ، فهو مشبوه معرض للوقوع فى ايدى البوليس ، ومعنى هذا ضياع أموالهم كما ضاعت من قبل ، والحشيش تجارة ، والكبار فى ميدان التجارة يسحقون الصغار بلا هوادة وحسن صغير فى الميدان وعبيد من الكبار ونجح فى أن يسحقه .

عاش حسن شهور الصيف .. هو نفسه لا يدرى كيف ؟ .. المهم انه كان يأكل ويشرب وينام دون عمل فهو منذ أن هجر المخبز وقد قرر الا يعود اليه ، ومنذ تذوق ربح الحشيش لا يستطيع أن يقبل خمسة عشر قرشا ليخدم الأوغاد والعاطلين المترددين فى مقهى السبتية .

ولكن شيئا ما ازعجه ، فقد حل الشتاء ، ولم يعد يستطيع النوم على رصيف الشارع ، ولم يعد يحتمل الجوع ، فالبرد قارص ، وهو فى حاجة الى غذاء ، وليس هناك من سبيل .

وتذكر حسن والريح تعصف بوجهه الشتاء الذى مضى ، وهو فى زنزانة السجن الدافئة ومن تحته البرش ، والوجبات الثلاث كل يوم والحياة الرتيبة .. ولا تفكير فى الغد .

وشهدت مقهى الكمال فى الصباح معركة عنيفة دارت بين حسن والذى كانوا فى المقهى ذلك الوقت الباكر من الصباح .. ولا أحد يعلم السبب فى الشجار .. المهم ان حسن حطم الكراسى والأوانى والأكواب .. واكثر من رأس ..

واختفى حسن من حى السبتية شهورا عديدة ، ثم عاد مع الصيف يعيش مثلما كان فى الصيف الذى مضى ، يأكل ويشرب وينام .. وهو نفسه لا يدرى .. كيف ؟ .

وعندما جاء الشتاء شهد المقهى المواجه لمقهى الكمال معركة رهيبة كان بطلها حسن .

وكما لم يعرف الناس سبب المعركة الماضية لم يستطيعوا معرفة السبب فى معركة اليوم ، المهم ان حسن حطم المقهى تماما ، واختفى بين أيدى البوليس وراء جدران السجن .

وشاعت قصة حسن فى الحى ..

وعندما عاد هذه المرة كان قد أصبح احدوثة ، فالنساء يتغامزن حوله وهو سائر بين أزقة الحى من خلف النوافذ .. والرجال يقفون ويفسحون له الطريق .. وأصحاب المقاهى يحلفون بالطلاق ان يشرفهم حسن بالجلوس معهم قليلا .

وعرفت النقود طريقها اليه من جديد « شغلة » جديدة وسهلة ليس فيها عرق الفرن ولا مذلة الخدمة ولا مغامرة التجارة فى الحشيش ، انه يطلب فقط ، والناس من حوله تلبى ما يطلبه ..

وعندما حل الشتاء هذه المرة لم يجد حسن نفسه مضطرا الى تحطيم شىء ، فهو يأكل ويشرب ، والنقود بين يديه ، وله أكثر من عشيقة ، والناس تخشاه .. حتى عبيد نفسه اصبح يهاب حسن ويخشاه ..

وعاد حسن يصرخ من الألم .. وكعوب البنادق تنهال على كتفه . فقد اخل بالنظام من جـديد وهو « سارح » فى ماضيه ، وعندما وصل الى مكانه فى الطابور ، كان كل شىء يبدو هادئا حوله ..

وعاد حسن من جديد ليفكر فى ماضيه بعد أن أصبح له فى الحى مكان رفيع ..

وتذكر فردوس التى استعصت على كل الرجال ما عداه .. وتذكرها وهى تخطر من أمام المقهى فى « الملاءة اللف » ووجهها الصبوح كأنه ابتسامة عريضـة وشعرها المتهدل يخفى عينها اليمين ..

انه يذكرها عندما غمزت له ، وعنـدما لحق بها فى الزقاق الضيق الذى ينتهى الى الدحديرة ، ثم غزواته معها ، والهمس الذى كان يدور على ألسنة الجميع .

.. ثم يذكر وهو يحث الخطى على الطريق . مناديل « الترتر » التى اشتراها لها .. وزجاجـات الكحل التى أوصته عليها .. وأرطال اللحم الضأن التى كان يحضرها كل يوم لها .. وانواع الفاكهة التى كان يحملها معه كل مساء ، وسكوت أهلها ورضائهم رغم انوفهم .

لقد كان ممكنا ان تسير به الحيـاة هكذا الى الأبد ، فيأكل ويشرب وينعم بفردوس وغيرها .. ولكنه فوجىء بفتور من جانب الناس لم يلحظه بادىء الأمر وقد ظنه أمرا عارضا لا يلبث أن يزول . ولكنه على مر الأيام لاحظ ان الفتور قد زاد الى حد أن أصبح واضحا . والذين كانوا يدفعون الاتاوات كل يوم ، أصـبحوا يدفعون يوما بعـد يوم ، وأحيانا يوما كل أسبوع ، ثم يوما كل شهر .

ولم تعد تكفيه القروش القليلة ، انه فى حاجة الى مال وفير ، ليأكل كما اعتاد وليدخن وليلبى طلبات فردوس التى تزداد يوما بعد يوم .

وفكر طويلا فى الأمر . ماذا يفعـل ؟ .. هل يضرب الناس ؟ لقد بات يخشى السجن الذى كان يهواه وهو يرفض العمل .. ويريد أن يحتفظ بمكانه الذى وثب اليـه فى الحياة ، ويود لو يحتفظ بكل ما ينعم به الآن ، دون مشاكل ولا ارهاق ، ولكن يبدو ان الناس قد اكتشفوا أن الضعف تسلل الى قلبه .. اكتشفوا انه لم يعد ذلك الوحش الذى كان بالأمس .. لقد اصبح مهذبا يحل المشاكل بالتفاهم بدلا من قبضة اليد ، لابد ان الناس اكتشفوا تلك الحقيقة لأنهم لم يعودوا يرفضون الدفع فقط .. بل انهم يتحرشون به وكأنهم يمتحنون قوته .. وهو أحيانا يكتم كل ما فى نفسه من ثورة ليمر الأمر وكأنه لم يلحظه ، وأحيـانا تسول له نفسه أن يبطش بمن يقف فى طريقه .. ولكن فردوس والحياة اللذيذة التى يحياها ، صحيح انه فقد الطمأنينة ، ولكن فليحتفظ بالحياة ..

ومرت أيام طويلة وحسن يضـطر الى تدخين السـجاير « الفرط » .. والتهام الوجبات غير المناسبة .. والبعد عن فردوس أياما لا يراها ، ولا تراه .. وأحيانا كان حسن يتميز غيظا وهو قابع وحده فى مكان بعيد وينطح رأسه فى الحائط وهو يحدث نفسـه : هل هو حقا جبان ؟ ان الخوف لم يعرف طريقه اليه من قبل .. وهو مستعد الآن لأن يحارب قبيلة وبلا سلاح .. اذن ماذا ؟ انه الحرص ، ولـكن ، على اى امـل ، ان تعـود الميـاه وحـدها الى مجاريها .

ولكن حسن كان واهما .. فكل يوم يمر به كان يؤكد له ان نجمه قد أفل ، وان أياما سوداء مقبلة عليه .. وكان من الممكن

ان يحتمل حسن كل شيء الا هذا الذى حدث .. فقد اصبح الفتور وباء معديا ينتقل بسرعة مذهلة فيصيب الناس حتى اصاب آخر الأمر .. فردوس .

ولكن ما السبب ؟ انه لم يبخل عليها بشيء على الاطلاق .

كان دائما رهن اشارتها ، كانت تطلب وهو يجيب .. وفكر حسن قليلا ، لابد أن هذا هو السبب فهو منذ مدة طويلة لم يعد فى استطاعته ان يجيب .. وهى دائما تطلب ، والف رجل على استعداد أن يجيب ، وكان الذى اصاب هذه المرة .. عبيد .

لقد سحقه مرة فى دنيا التجارة وها هو يسحقه مرة أخرى فى عالم النساء .. وها هو احيانا يعتريه ضعف فيتراجع ولكنه دائما ينتصر ..

واحس حسن بالمرارة تفيض بها نفسه ، وتمنى فى سريرته لو استطاع ان يشارك عبيد فى فردوس حتى تعود الأحوال الى ما كانت عليه .

وفكر حسن فى ان يقتل عبيد ، ولكنه قوى ، وعنده مال ورجال ، ويستطيع بسهولة أن يسحقه كما كان يفعل من قبل ، اذن من يقتل والرغبة تلح عليه فى ان يقتل اى انسان .

ثم جاءت فرصة عندما ذهب الى فردوس يطلب منها حلية ذهبية كان قد اهداها لها فى أيام بعيدة ، ولم يجدها هناك ، ووجد زوجها .. هذا البائس المحطم كأنه عود قصب تحالفت عليه أنواء الشتاء .. ولم يدر حسن ماذا يفعل ، لقد رفع قطعة حديد بيده وهوى بها على الزوج .. ولم يكن فى الحقيقة يريد قتله ، كان فقط يريد ان ينتصر عليه .

وعاد حسن من جديد يذكر ماذا حدث بعد ذلك ، التحقيق والمحاكمة والحكم بالأشغال المؤبدة .. وتذكر وجوه الصف الطويل من الشهود الذين شهدوا ضده ووقفوا ضده ، وهو خلف

قضبان الحديد من أصحاب المقاهى والباعة والمتشردين ، والذين كانوا يقبلون يديه .

ولكنه لم يهتم لهذه الوجوه الكثيرة قدر اهتمامه بوجهين : وجه فردوس ، ووجه عبيد ، وجهها وهى تحكى ، كيف راودها عن نفسها .. وكيف صدته برفق فى البداية حتى لا تثير فضيحة ، ثم اضطرت الى ابلاغ زوجها بالأمر .. ووجه عبيد وهو يروى فى هدوء وورع ، كيف أن هذا الواقف خلف قضبان الحديد خطر على الفضيلة والأمانة والأمن العام ..

وضغط حسن على اسنانه وهو يذكر عبيد .. لقد انتصر فى النهاية على كل اعدائه ، حسن فى السجن ، والزوج فى التراب ولابد هو الآن يحكم الحى من فوق كرسيه بمقهى الكمال بالسبتية .

كان الطابور البائس من الرجال الأشقياء قد وصل الى نهاية سفح الجبل عندما انهمر المطر فجاة وبشدة ، وكان عددا وفيرا من المآسى الرهيبة قد هز اشجان السماء فراحت تذرف الدمع الهتون عليه يجرف أمامه كل ما هو شر ، على ارض البشر .. وانتشر الرجال الأشقياء فى انحاء الجبل ليفروا بجلودهم من المطر ..

رجل واحد كان يقف مرفوع الراس نحو السماء الممطرة ، وعلى فمه ابتسامة الرضا وقد غاب القلق عن قسمات وجهه العريض . لقد جاء الشتاء ، وهو ليس فى حاجة لتحطيم المقاعد والرؤوس ليدخل السجن .

كان المقهى عامرا هذه الليلة .. ليلة العيد ، والزبائن يبدون غيرهم بالأمس .. فهم رغم الكآبة المطلة من عيونهم المنتفخة الا أن أحاديثهم فكهة وملابسهم جديدة ، وفى جيوبهم بعض النقود .. والمعلم أمين صاحب المقهى يبدو فرحا هو الآخر ، منتفخا كالديك فى جلسته الهادئة على الرصيف المقابل ، والشيشة فى فمه ، وأصابعه النحيلة المدببة كمخالب الطير تلمع بالخواتم الذهب ، والصديرى الشاهى يبرز من بين فتحة الجلباب الصوف ، والليلة صيف ، والنسم يهب حينا رطبا نديا ، وحينا آخر مشبعا بالتراب .. و « المعلم » امين يفلسف كعادته دائما لأفراد الشلة الذين تناثروا حوله على المقاعد فوق الرصيف كاذب من يقول ان التراب يضر بصحة الناس اننا جميعا من التراب ، لا يضر بالناس الا الأعمال السيئة .. ويجيب القطيع البائس الجالس حول المعلم امين بهز الرؤوس ومصمصة الشفاه علامة

الاعجاب الممزوج بالدهشة من قول المعلم أمين ، ان احدا من الجالسين لا يستطيع ان يناقش اقوال المعلم ، انهم لا يفهمون معنى النقاش ، وهم أيضا ليسوا فى حاجة اليه .. لقد تعودوا سماع مثل هذه الحكم البالغة من المعلم فى بعض الليالى التى ينجلى فيها ، وهم يفرحون لمثل تلك الليالى لأن كلا منهم يستطيع ان يشرب على « الحساب » أو يقامر على الحساب بل وفى بعض الليالى التى يكون فيها المعلم مبتهجا للغاية يستطيع بعضهم ان يقترض شيئا من النقود .

ويعود المعلم امين الى حديثه محركا الهواء براحة يده متعمدا خلال ذلك ان يرى الجمع المحتشد حوله ، الخواتم الذهبية اللامعة ، والفصوص الياقوت التى تبدو وكأنها عيون ملتهبة لشياطين اقزام . والفانلة الحمراء ذات الكم الطويل المشغول بالابرة فى نهايته ثم يرفع حذاءه الأجلسيه الى اعلى قليلا محركا اصابعه داخل الحذاء قبل ان يقول :

ـ صحيح ليس التراب هو الذى يضر بالناس ، وليس هو الطين او الدود ، انا اعرف مخلوقات فى حجم الجان وفى قوة سباع الغاب ، يقضون حياتهم ابدا ، وطعامهم دود المش ، وشرابهم طين النهر ، وعملهم نبش الأرض باظافر اليدين والقدمين .. انه اذن ليس التراب والطين والدود الذى يضر بصحة الناس وانما الذى يضرهم هو الطمع هو الشره ، هو اللهث الذى لا ينتهى أبدا فى سبيل جمع المال .

وعادت الدهشة الممزوجة بالرضا ترتسم على وجوه الناس المنصتين فى غير حماس الى قول المعلم امين وكأنما لحظ المعلم هذا التراخى من جانب الجالسين ، فصفق بشدة للجرسون الذى اقبل على عجل يقطع الشارع وثبا بكلتا قدميه كحيوان الكنجر .

وطلب المعلم مشروبات للجالسين ، ثم تمطى فى خمول وتثاءب فاغرا فاه فبدا وجهه حفرة واسعة كباب القبر ، وبدت اسنانه الصدئة الصفراء المتآكلة كأنها بقايا عظام ميت .. ومضت فترة صمت طويلة قبل ان يعود المعلم امين الى حديثه الذى يتناول كل شيء تقريبا ، من شئون الدنيا والدين الى الحب وروايات السينما الى موضوعه المفضل دائما .. ايام زمان .

ـ نعم ، اننا نقتل بعضنا بعضا ، بالظلم والحقد والحسد .. كلنا فى هذه الحياة قتلة ومقتولون .. ولا ادرى لماذا اصبحت الحياة شقية بائسة الى هذا الحد .. وكانت منذ اربعين عاما هينة لينة جميلة على الدوام .. هل أجدبت الارض ؟ هل جف ماء النهر ؟ هل نقصت خيرات الله ؟ لابد ان شيئا من هذا قد حدث .. والا .. فلماذا كل هذا البؤس ، وكل هذا الظلم ، وكل هذا القتال العنيف فى سبيل الحياة ..

وكان المعلم أمين يكرر هذا الحديث كلما اجتمع حوله بعض الرجال وكان يبين من حديثه انه دوما تواق الى .. ايام زمان تلك الأيام التى عاشها فى شبابه قاطعا مسافات شاسعة من الارض لهثا وراء قطيع من الأغنام فى طريقه الى المذبح جامعا قرشا فوق قرش حتى كون ثروة ضئيلة استطاع ان يشترى بها المقهى وان يلبس المقفاطين الشاهى والساعة ذات الكتينة الذهب والحذاء الأجلسيه .. واستطاع ايضا ان يشترى كل هؤلاء الرجال المنصتين .

وكان من المفروض ان يستمر المعلم أمين فى حديثه وان يستمر الذين حوله فى اماكنهم طالما ان المعلم لا ينساهم خلال حديثه فيصفق بشدة بين الحين والحين طالبا المشاريب مجانا لهؤلاء الصحاب . ولكن المعلم قطع حديثه فجاة وقد لمعت عيناه وهو يصوب

بصره داخل زقاق الأباصيرى الذى يمتد بجوار المقهى وينتهى بجدار أسود اللون من اثر دخان « مستوقد » الفول الذى يجاوره .
ولحظ الرجال الذين كانوا على الرصيف شبحا يخطر على مهل فى طريقه من داخل الزقاق الى الشارع العمومى .. وقبل أن يصل الشبح الى ناصية الشارع كان المعلم قد أسرع متجها ناحيته وانتحى به جانبا فترة من الوقت ، مضي بعدها الشبح فى طريقه الى الشارع ، وعندئذ تبين للرجال أن الشبح لامرأة تبدو داخل الملاءة السوداء صغيرة جميلة لدنة كالعصا الخيزران .. ومن جديد عاد المعلم أمين الى جلسته مع الصحاب ، ولكنه لم يتكلم بل ظل صامتا بعد أن دس شيئا صغيرا كان بين أصابعه فى فمه .. ونادى على الجرسون ودس فى يده جنيها وطلب ثلاثة ارطال من اللحمة الضأن واربعة ارغفة وحزمة من الفجل وليمونة خضراء .

ثم جلس هادئا مزهوا كأنه قائد يخرج لتوه منتصر فى معركة .. ومر ماسح الأحذية ونقر بفرشاته على الصندوق ولكن المعلم امين لم يجبه مكتفيا بالنظر الى الحذاء اللامع وعاود الصبى الصغير النقر على الصندوق ، فركله المعلم امين بقدمه فى بطنه ، فتقهقر عائدا للخلف فى خطوات سريعة غير منتظمة ثم اعتدل ... ومضي .

وعاد المعلم امين الى جلسته الهادئة المنتفخة كأنه ديك .. واقبل بعد قليل رجل سمين قصير القامة منتفخ الأوداج اصلع الرأس لامع البشرة يبدو وكأنه عجل صغير معد للذبح .. فى نظرته تبدو الطيبة ممتزجة بالبلاهة والغباء ، ملطخ الملابس ببقع الدم وبقايا قطع اللحم الرخيص .. وحيا الرجل المعلم امين وصحبه .. ثم ادخل يده خلال فتحة الجلباب وضرب رقبته بيده قبل ان يقول :

ــ مفيش لعب يا معلم ؟ .

ودون أن يتحرك المعلم من مكانه قال فى هدوء :

ــ ايه الحكاية يا معلم نسر .. لازم غنى النهاردة !! .

ــ نجرب يا معلم ..

ــ طيب استنى اما أجيبلك الواد سيد .

وغاب الجرسون قليلا ثم عاد ومعه سيد .. نحيفا ضئيلا غائر العينين بارز عظام الوجه له نظرة لص غشاش ، وان كانت تفصح فى نفس الوقت عن شخصية ذكية طموحة واعصاب قلقة ثائرة ، وصفق سيد فرحا وقفز فى الهواء عدة قفزات متتالية :

ــ مساء الفل يا معلم نسر .. العشرة بجنيه مشفى ..

ورد النسر فى بلاهة :

ــ نتفرج ..

ونهض المعلم أمين على الفور ليعد لهما المائدة والدستة الجديدة والمقاعد وقطع الطباشير ، ولم يكن فى المقهى سوى اربع موائد مشغولة باللاعبين ، فانقض المعلم على احداها وحملها بين يديه وقذف بها على الرصيف ، وعندما احتج اللاعبون صفع كلا منهم على وجهه وقذف بهم الى عرض الطريق .. وهكذا اعدت الجلسة بسرعة للمباراة التى ستنشب بين الرجلين ، ونهض الصحاب الذين كانوا حول المعلم أمين فالتفوا باللاعبين .

وبدات المباراة ، قذف كل منهما بورقة من ذات الجنيه وبدا التفنيط والتفريق واللعب .. وطار الجنيه الأول والثانى والثالث والرابع ، وعقارب الساعة تأكل ظلام الليل ، واللعب يسير ونيدا رتيبا والخسارة تتزايد واعصاب اللاعبين والمتفرجين على السواء قلقة محترقة بتأثير السهر واللعب والنيكوتين .. وجاء الجرسون فهمس فى أذن المعلم امين بكلمات قصيرة ، فاستأذن بعد ان سلم « التأمين » لأحد الحاضرين وغاب داخل الزقاق ومضت ساعات

طويلة قبل ان يبزغ ضوء الفجر ، ومع الفجر عاد المعلم امين ، وكان الرجل الضئيل النحيل سيد قد خسر كل ما معه .. خمسة عشر جنيها بالتمام ، وآخر « عشرة » قد انتهت ، والمعلم نسر يفنط الكوتشينة ، وســيد يبحث فى كل خرق من جلبابه عن نقود ، والمتفرجون يشرحون فى لذة فائقة سير العشرة الأخيرة وكيف أن المعلم نسر ترك « الآس البسطونى » من يده ، ولو تمهل قليلا لحسم العشرة قبل الأوان .

واشترك الجميع فى هذا النقاش الذى يدور عادة بعد كل عشرة فنية وكان الحاضرون قد بلغوا العشرين رجلا ، فقد خرج كل زبائن المقهى ليشهدوا سير المعركة الرهيبة بين المعلم نسر وسيد .. او ابو سيد كما يطلق عليه المعلم امين من باب المزاح .. وقطع هذه الثرثرة الفارغة على المشاهدين صوت ابو سيد وهو يصرخ فجـأة :

ــ خمس دقايق اروح اجيب فلوس واجى ..

وفى هدوء بالغ رد المعلم نسر :

ــ وانا ايه اللى يخلينى استناك ؟ .

ــ لازم تكفينى لعب ، كده الأصول .

ــ الأصول هى اللى بقولك عليها ..

ووافق المعلم امين على كلام نسر وايده كذلك كل الحاضرين ، فان نسر كان لا يهدأ طوال اللعب فى طلب المشاريب « للجدعان » الذين التفوا حول المائدة وسادت فترة صمت قصيرة قبل أن يمد أبو سيد يديه فى حركة عصبية محمومة الى المعلم امين ويقول :

ــ هات جنيه لحد الصبح يا معلم ..

ــ ماحنا الصبح دلوقت .. كل سنة وانت طيب ..

ــ قصدى لحد ما روح البيت ..

ــ على الطلاق من بيتى ما فيه فى جيبى مليم خردة .

وكانت المفاجأة قاسية لأبو سيد لم يستطع تحملها فازدرد ريقه عدة مرات ثم قال للمعلم بنفس الصوت المخنوق بعبرات غير منظورة : .

ــ أنا شايف معاك فلوس زى البنك دلوقت والا خسارة فى الجنيه ؟ .

وكأنما اثار هذا التحدى والاصرار من جانب ابو سيد المعلم امين فصرخ مهتاجا :

ــ الله ، انت شريكى ؟ .. حالف من بيتى طلاق تلاته ما سلف اخويا ابن امى وابويا .. حد شريكى .. !!

وفى لمح البصر هب ابو ســيد كالمجنون خالعا عنه جلبابه وقذف بها فى حجر المعلم ثم جلس وقبض نسر على الجلباب قبل ان يقول مستنكرا :

ــ دى ماتساويش تكله .

ــ هيه ايه دى ــ على الحرام انت ما تعرف تلبسها ..

وحسم المعلم امين النقاش بأن وافق على استئناف اللعب على ان تكون آخر « عشرة » اذا خسر ابو سيد اللعب .. وهكذا بدا التفنيط والتفريق ولكن بهدوء أعمق وعدم مبالاة من جانب المعلم نسر ، وبعصبية اشد من جانب ابو سيد . وجاء عسكرى الداورية فسلم على الجميع ، وكل سنة وانت طيب يا معلم . وانت طيب يا حضرة الصول .

شاى الاصطباحة يا واد للباش شاويش

حاضر يا معلم

كل هذا واللعب يدور بين الفريمين اشبه بمعركة حربية يتوقف عليها مصـير الحرب ولم يمض وقت طويل حتى ظهر

واضحا ان الحظ قد فر تلك الليلة من جانب ابو سيد وانه سيخسر حتى جلبابه .. هكذا ادرك ابو سيد ايضا وهو يلعب آخر « طليه » واللعب يسير خفيفا وبحذر وتباشير الصبح تلوح فيما وراء الافق وصياح الديكة يملأ الجو وقرقعة عربات «الكارو» تسمع من بعيد والنسمات الباردة الندية التى تهب فى مثل هذا الوقت من كل صباح تنعش الجميع الا اللاعبين فقد كانا يتصببان عرقا وكانهما خارجان لتوهما من حمام ساخن .

وهكذا انتهت العشرة وخسر سيد جلبابه فبدت عيناه المنتفختان حمراوين كحبات التين البرشومى المعطوبة .. واخذ الرجال الذين كانوا يشهدون اللعب فى الانسحاب فى هدوء وفى اصرار مد ابو سيد يده الى المعلم نسر وقال بصوت مخنوق وكأنه طفل قضي فى البكاء وقتا طويلا .

ـ هات اثنين جنيه يا نسر .

ـ ولا مليم .

قالها نسر فى هدوء غير متكلف وعاد ابو سيد يطلب بنفس الأعصاب الثائرة والصوت المخنوق .

ـ لا حاخد اثنين جنيه .

ـ والنبى لما تتشنق ، انا خسران معاك الجلد والسقط .

وادرك ابو سيد انه لا فائدة ترجى من وراء النقاش وانه حتما ذاهب الى منزله بلا جلباب ولا نقود .. واطرق قليلا نحو الأرض يفكر وهو يصر على اسنانه كالكلب ويدعك عينيه باصبعه ، وبسرعة خاطفة سدد ابو سيد لكمة قوية الى فك غريمه انتجت صوتا اشبه بذلك الذى يحدث من احتراق خشب جاف داخل فرن متقد .. وعندما فاق المعلم نسر من المفاجاة قذف بغريمه فى عرض الطريق وظل يلاحقه بالركل والضرب بقسوة وشدة بالغة وكأنه ينتوى قتله .. وعندما وقف ابو سيد على قدميه ادرك ان عسكرى

البوليس قد قرر ان يؤدى واجبه فانسحب مخترقا الزقاق الى منزله .

كانت الشمس قد بدات ترسل اشعتها نحو الأرض والزقاق يبدو رغم الصباح مظلما والبيوت التى على جانبيه متداعية الأركان متهالكة تشققت جوانبها بفعل السنين الطويلة التى مرت عليها والنوافذ اكتسب لونها الذى كان ناصعا يوما ما .. لونا آخر شبيه بلون المياه الراكدة ومصباح الحكومة الذى يتوسط الزقاق يلفظ آخر انفاسه ولم يبق فيه سوى ذبالة ضئيلة مرتعشة خافتة واحس ابو سيد بالدوار وهو يفتح الباب الخشبى الضخم الذى تزينه نقوش كالحة كنقوش التجاعيد التى يضيفها الزمن الجبار الى الوجوه الشائخة .

وعندما اغلق الباب من خلفه حدث فى وسط الساحة الرطبة شىء غريب لم يكن يتوقعه وكان ولده ابو حباجة فى طريقه الى الخارج فمد يده اليه :

ـ هات قرش .

وانتفض سيد كالمجنون وبكل ما تبقى فيه من قوة صفعه على وجهه وحمله بين يديه وفتح الباب وقذفه الى الزقاق وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ، وضج الزقاق بصراخ الطفل ونباح كلب عجوز كان نائما ازعجه الصراخ فقام محتجا بصوته البغيض على تلك الضجة المقلقة وجرى بعض الرجال الذين كانوا ما يزالون فى اماكنهم عند ناصية الشارع ليلحقوا بالطفل المطروح على ارض الزقاق .. وعندما رفعوا الطفل من فوق الأرض .. كان هناك فى الطابق الأعلى من المنزل رأس امراة صغيرة حسناء رغم الشحوب الذى يبدو فى وجهها وكانت هى ام الطفل وزوجة سيد النقاش .. وعرف الرجال فى ذلك الصباح انها هى التى انتحى بها المعلم امين فى ظلام الليلة الماضية فترة فى الزقاق ..

عادت الضجة من جديد الى ميدان سوق الأحد . وهرعت الى وسط الميدان جماعات كثيرة من الناس التفوا فى حلقة دائرية . صبيان المدارس . والباعة والمتسكعون ، والشيالون ، والنشالون أيضا .

وراح الجمع المختلط يرقب فى اهتمام بالغ رجلا شاحب اللون ، بارز العظام . منتفخ العضلات كأنها كرات حديدية !

وبدأ السامر ، وراح الرجل النصف عار يدور حول نفسه داخل الحلقة عارضا عضلاته المنتفخة على الناس ، وتوقف الرجل فجأة فى وسط الدائرة وضرب الأرض بقدميه ضربة عنيفة ، وخبط على صدره خبطة قوية ، وزعق بصوت منبوح من طول ما صاح .

ــ اللى يحب النبى يصلى عليه . راجل غريب وشريف بياكل من عرق الجبين ، أحسن من السرقة والنصب ، وكافة شىء يغضب الله .

ومن جـديد عاد يدور داخل الحلقة وهو يصيح فى قوة .. « هع ... صلى على النبى يا جدع » .

وتوقف قليلا ريثما هرش فى ظهره ، ثم جذب نفسا عميقا من السيجارة المشتعلة بين اصابعه ثم ضغط بأصبعه على السيجارة من الناحية المشـتعلة فاطفاها ، وعلق الجزء الباقى منها خلف اذنه .

ثم قفز قفزة عالية وكأنه طفل يلهو ، وعاد من جديد الى اللف داخل الحلقة المضروبة حوله فى احكام .

وفجأة توقف عن الجرى ، وراح يدقق النظر فى وجوه الوافدين صبية ليس معهم شىء .. وفقراء متعطلون ، وطلبة صغار يقطعون الوقت بالفرجة ، وباعة عيش وأوراق يانصيب ، وامرأة حامل ، وكل هؤلاء ليس معهم شىء ، وتخيل الفشل الذى سيصادفه ، وتذكر يومه كله منذ طلعة الشمس حتى الآن .

فى بولاق ضربه العسكرى .. وفى معروف لم يأخذ مليما واحدا رغم كل ما اداه من العاب ، وفى باب اللوق ناله قرش واحد اشترى به سيجارتين وفى السيدة وقع حادث نشل ، ولولا تسلله قبل حضور البوليس لقضى يومه كله فى السجن ، وفى المدبح صفعه المتفرجون على قفاه ، وفى فم الخليج سخروا به وبألعابه وضربوه بالطين ، وهو الآن فى سوق الأحد ، وفى الجيزة ، ترى أى مصير فى انتظاره فى نهاية هذا النهار الأسود الكريه حتى الطبيعة نفسها كانت ضـده .. عواصف وأمطار ووحل فى الطريق يمنع عنه الناس الطيبون .. ولا يترك فى الشارع الا الصبية والمتعطلون من أمثال هؤلاء الملتفين حوله الآن !!

وتذكر سيد ابنه ، لقد غاب منذ يومين ثم علم انه محجوز فى قسم بولاق للتحرى ، وشيخ الحارة فى حاجة الى عشرة قروش .

ثم أين ثمن الطعام الذى لم يتذوقه منذ امس .. والدخان المعسل الذى جعل عصافير راسه تطير فى كل اتجاه .. ! وتذكر بهية ، هذه المسكينة الغبيـة التى تنتظره الآن فى الحجرة المعتمة الرطبة تحت سلم البيت العتيق فى نهاية الزقاق .. وتذكر عضلاته التى تمزقت من كثرة الشد والجذب ، والوصية التى اوصته بها الحاجة بهية ، مية ملح ودهان بزيت الكافور ، ليدهن صدره الذى يكاد يتمزق ، واضلاعه المحطمة من كثرة ما قيدوه فى الاغلال ، وهذا الضعف الذى يعانيه ويحس به كيانه كله ، وعيناه التى يخبو فيهما النور كل يوم ، وصوته الذى ضاع وتلاشى من كثرة الصياح .

وتذكر المعلم حنفى الذى اشار عليه بهذه المهنة الشاقة ، وهو يعلم انه لم يخلق لها . ولكنه كان مضـطرا لذلك بعـد ان اغلق المصنع الذى كان يعمل فيه .

وأفاق من تأملاته على صوت الضجة التى تتصاعد حوله وراح يحملق كالمذهول فى الناس . ثم أشار بحركة سريعة الى صعيدى يقف فى مقدمة الصفوف عارى الصدر يبرز الشعر من خلال ملابسه المهلهلة كأنه سلك شائك مضروب حول بعض المعسكرات ، مفتول العضل والشارب ترتسم البلاهة والطيبة والسذاجة على قسمات وجهه العريض .. ! وقال الرجل العارى فى لهجة آمرة .. تعال انت ..

وانفلت الصـعيدى من الصف الى داخـل الحلقة على الفور ، دون أن يفهم لماذا ، وراح هو الآخر ينظر الى الناس الذين وقفوا حوله وكأنه بطل مثل هذا العارى الذى يزعق بصوت مبحوح !

وتقدم الرجل العارى الى الصعيدى وربت على كتفه وسأله

ـ اسمك ايه ؟ .

ـ عبد الباسط .

ـ عاشت الأسامى .. ومنين يا عبد الباسط ؟ .

ـ من ميت خلاف مركز صدفا مديرية جرجا ، وباشتغل فى العمارة اللى على يمينك .

والتفت الرجل العارى الى المرتصين حوله وزعق زعقة شديدة ، انتفخت لها عروق رقبته فبدت زرقاء مريضة كأنها تينة معطوبة ملقاة على بعض الطريق .

ـ دلوقت احنا عاوزين اربعة جدعان زى عبد الباسط يكتفونى فى السلاسل وهاكسر السلاسل دى بأمر الله . ونفرج الناس اللى بتصلى على النبى .

واختلط النظام ودخل الى الحلقة اكثر من عشرين شخصا .. كل منهم يعرض خدماته لتقييد الرجل العارى بالأغلال .. ولكنه لم يكن هناك واحد ممن دخلوا الحلقة يصلح للقيام بهذا العمل المطلوب ، كانوا جميعا صفر الوجوه ، انطفأ الضياء فى عيونهم ، وبرزت عظامهم ، وتقوست سيقانهم من فرط الهزال ! وضاع وقت طويل فى اعادة النظام الى ما كان عليه واختير اخيرا اربعة من نفس نوع عبد الباسط . واصبحت الحلقة خالية الا من ستة رجال وقفوا جانبا كالجدران يختبرون السلسلة الحديدية الطويلة ، والرجل العارى امامهم يشعل السيجارة ويسعل سعالا شديدا وانتهت نوبة السعال التى استبدت بالرجل فبصق ثم مسح فمه بيد مرتعشة ثم راح يدور من جديد حول الرجال الخمسة ثم زعق من جديد وهو يلطم صدره بشدة .

ـ الوقت كل راجل جدع يحط ايده فى جيبه يطلع قرش لراجل جدع زيه متعشم فى وجه الله ! قرش ثمن سيجارة مش راح يضلع الجدعان اللى يصلوا على النبى .

وسرت بين الصفوف همهمات خافتة ، وانسل البعض بعيدا

عن الجميع فى هدوء ، واستدار البعض الآخر الى الناحية الأخرى ، وظل الآخرون فى أماكنهم ينظرون فى بلاهة الى الرجل العارى وهم يهرشون ..

وخيم الصمت فترة على الحلقة .. قطعها الرجل العارى بسحب عصا قصيرة الهب بها اكتاف الصبية الصغار الذين اختاروا مكانا فى الصف الأول ، وجرى الأطفال كأرانب مذعورة فاصطدموا فى طريقهم بامراة حامل .. وزعقت المرأة بالصوت ، وسقط الطفل الذى على كتفها فداسته الأقدام ، واقبل عسكرى البوليس على صوت الضجة فانكمش البعض حول نفسه ، وجرى البعض الآخر ثم عادوا بعد ان اختار عسكرى البوليس مكانا له فى الصف الاول ووقف يتفرج .

ومن جديد عاد الرجل العارى يستجدى الحاضرين بصوت يقطر يأسا .

ـ محبة فى الله يا جدعان كل واحد جدع يمد ايده بقرش لراجل جدع غريب من بلد سيدى ابراهيم ابو خليل .

ومد جدع يقف فى الصف الخلفى يده بقرش صاغ للرجل العارى ... وهتف الأخير فى انشراح .

ـ آدى راجل جدع فتح الباب .. اللى يحب النبى يهرش فى جيبه .

وانهالت القروش على الرجل العارى من كل اتجاه ، ثم توقفت حركة السخاء وساد الصمت من جديد على الحلقة ، وراح الرجل يعد النقود التى حصل عليها ، وصاح بنفس الصوت المبحوح .

ـ ثمانية قروش يا جدعان .. اللى طالبينه من الله اتناشر قرش ، مش كتير على الله وعلى الناس الجدعان اللى واقفين يتفرجوا علينا .

وضرب يده بشدة على صدره ، فانتابه السعال .. يابسا شديدا كأنه صوت احتراق خشب قديم .

واخذ يدور حول الحلقة ويده ممدودة .

ــ محبة فى الرسول يا مسلمين .

وصاح رجل من الذين دفعوا قرشا للرجل العارى فى حدة :

ــ عاوزين نتفرج .. ورانا شغل .

وصــاح آخرون نفس الصــيحة ، وارتفعت الضــجة من الجميع ... تطالب الرجل العارى بأن يؤدى ما وعد به من العاب .

والتقط الرجل العارى قميصه الممزق فارتداه ، وبدا للجميع أن الرجل سينصرف دون أن يؤدى حركة ما .

وصاح رجل عجوز لا يكاد يبصر بعيدا عن مواطىء قدميه .

ــ اضربوه حتى الموت .. لقد سخر بنا .

وصاح ابراهيم فتوة سوق الأحد ، وكان حتى هذه اللحظة يرقب السامر من بعيد .

ــ قيدوه بالقوة ..

وصادف اقتراح ابراهيم هـوى فى نفوس الجميع وتقـدم الصعايدة الخمسـة نحو الرجل فلفوا السلسلة حول وسطه ، وقاوم الرجل فى يأس بالغ ، ثم انهارت مقاومته فجأة بعد ان احكم الرجال الخمسة لف السلسلة حول وسطه ويديه ، وأمسك بالرجل ثلاثة منهم ، وراح الآخـران يلفـان فى احـــكام السلسلة الطويلة ، مسترشدين باقتراحات الجمهور ، لا مش كده .. ايوه كده ، لفها تانى ، قوى ، قوى ، هاتها على صدره ، من تحت ذراعه ، اعقدها من هنـــا .

ونصف ساعة كاملة والصعايدة الخمسة منهمكون فى اخلاص فى تقييد الرجل العارى الذى راح يقاوم فى شدة وفى يأس .. ثم تلاشت مقاومته تماما .. ولم يبق من مظاهرها الا ارتعاش ساقيه الرفيعتين وهو معلق فى الهواء كأنه فار يضغط على رقبته صبى صغير .

وعندما انتهى الرجال الخمســة من مهمتهم صــفق الجمع المحتشد ... وصاحوا جميعا صيحة انتصار ، ثم امروا الرجال الخمسة بأن يتركوه . ليروا اذا كان يستطيع تحـرير نفسه من الأغلال كما ادعى من قبل .

ولم يكد الرجال يخطون الى الخلف تاركين الرجل العـارى المقيد .. حتى فوجىء الجميع بالرجل يسقط فوق الأرض .. كتلة من عظام وحــديد . وضاعت جميع المحاولات التى بذلت لانقاذه ... وجرى بعض المتفرجين الى الأجزاخانة القريبة . وطار بعضهم الى تليفون البقال ليستدعى الاســعاف .. وحتى هذه اللحظة كان ابراهيم فتوة السوق لا يزال فى مكانه . على الكرسى فوق الرصيف يرقب الجماهير المذعورة والاخـرى التى تطوعت بفك قيود الرجل المغمى عليه . وعندما استطاعوا فكه من السلسلة الضخمة . قام ابراهيم من مكانه فالتقط السلسلة ... ثم وضع يده على قلب الرجل ... ثم صاح فى لهجة جنونية مفتعلة ...

ــ الله يرحمه .

وفى لمح البصر كان الميدان قد اصبح خاليا تماما ... وتطوع ابراهيم فحمل الجثــة والقى بها الى جانب الطريق .. وغطاها بورقة تبرع بها الجزار الذى يتوسط الميدان . وعاد ابراهيم الى مكانه على الكرسى والسلسلة الضخمة تحت قدميه ملتفة حول نفسها وكأنها ثعبان .

وعندما جاءت عربة الموتى فى المســاء ... كان الميدان معتما كئيبا ، وثمــة رياح شديدة محملة بالاتربة تصفع جدران المنازل القديمة ولا احد بجوار الجثة سوى عسكرى البوليس الذى آثر أن يقف بعيدا عنها ... وكلب صغير راح يلعق فى ورقة اللحمة . حتى السلسلة الضخمة اختفت هى الأخرى ومعها ابراهيم .

محمد عبيد أمى لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه قادر على التفاهم بخمس لغات . وهو ذكى من طول ما عمل فى ميناء بور سعيد ، يعرف جنسية الخواجا من سحنته ، ويكسب القرش بالفهلوة .. وهو مشهور بين عمال الميناء باسم الفهلوى . وعندما نشبت الحرب أغلقت الحكومة البوغاز ، ولم يعد الميناء يشهد سوى مراكب حربية كئيبة يركبها جنود فقراء ... تدخل سرا وتخرج سرا ... والاقتراب منها ممنوع . ومع أن الفهلوى فى استطاعته أن يصعد على ظهر أية باخرة يشاء وفى اى وقت يريد .. وبلا تصريح ، الا أنه لم يرغب فى الصعود على ظهر واحدة من هذه البواخر الكئيبة التى تنقل بدل البضائع والركاب ... قنابل ومدافع وجنود . المهم ان الحرب راحت وجاء السلام . ومع السلام جاءت المراكب عبر البحار تحمل ركابا كأيام زمان . ولكن ليتها ما جاءت . فركابها أفقر من العساكر ، واغلبهم

مهاجرون الى استراليا . وتحسر الفهلوى على خوجات زمان . . . العجائز الأثرياء . يبدو ان الحرب قد قضت على هذا النوع من الناس . واشاعت الفقر والخراب فى بلاد بره . والا ، فلماذا كل هذا الهم والفقر الذى يعيش فيه هؤلاء الوافدون من خلف البحار .

وبالرغم من هذا كله فالفهلوى حريص على الذهاب كل صباح الى الميناء ، يصعد على البواخر .. يبيع أحيانا صورا تذكارية ، وأحيانا اخرى يضطر الى ان يشتغل حاويا ويخرج الكتكوت من البيضة ، واغلب الأحيان كان يصعد الى البواخر وليس معه شىء وينزل منها ومعه اشياء كثيرة . وهو يربح ما يكفيه ويستطيع ان يربح اكثر لو اراد . ولكن آه لو وقع فى يد البوليس .

شىء واحد فقط كان يقلق بال الفهلوى ويعذبه . وهو عدم الاستقرار على مهنة تضمن له مستقبله ، حتى جاءت الى الميناء مراكب من نوع جديد تحمل عساكر من فرنسا فى طريقها الى بلاد بعيدة . ورغم أن المراكب حربية الا أن الصعود على ظهرها مباح . والعساكر الذين تحملهم البواخر معهم نقـــود فرنسية ، وهم يستبدلونها بنقود من عملة الهند الصينية .

عمل سهل ومربح . وقلة تعمل وحدها فى الميدان . والفهلوى فى حاجة الى مهنة . . . وها هى الفرصة امامه والمراكب التى من هذا النوع كثيرة .. اذ يبدو أن حربا هائلة نشبت فى تلك البقاع ويبدو أيضا انها لن تنتهى ابدا .

وراح الفهلوى يصعد على البواخر يستبدل النقود .. ويربح كثيرا .. والأوراق التى فى يده تتضخم وتزيد . واصبح الفهلوى تاجر نقود فى الميناء . يكسب جنيهين وأحيانا ثلاثة كل يوم . ثم زادت المراكب فزاد الربح ، وتضاعف الربح بعد ان اصبحت المراكب

تأتى وتعود . وهو يستبدل النقود فى الذهاب والعودة ، وغمر السرور قلب الفهلوى . فهو يكسب كثيرا وينفق اكثر ، ويتزوج ويطلق واصبح له فى بور سعيد عشيقات .

وأربع سنين كاملة والفهلوى يرتع فى النعمــة .. وخزائنه اصبحت تضيق بالنقود من هذه العملة الغريبة ... عملة الهند الصينية .

صحيح ان الدنيا حظوظ . والحرب التى تدور فى تلك البلاد البعيدة تدر عليه ربحا وفيرا . ولكن أين تقع تلك البلاد البعيدة التى درت عليه كل هذا الربح . واصبح الفهلوى أكثر اهتماما بالمشكلة عن ذى قبل . وراح يتتبع أنباء المعارك التى تدور هناك باهتمام . فهناك ثورة ... وفرنسا تحاربها . وهو يدعو لفرنسا بالنصر ، وهى حتما ستنتصر .. فهى أقوى ولديها كثير من الرجال والعتاد . وحفظ عن ظهر قلب اسماء القادة الذين يحاربون هناك ، الجنرال كاسترو الفرنسى .. انه فى صورته يبدو عظيما وشديدا وسيأتى النصر قطعا على يديه . فهو يحمل على صدره حفنة من النياشين . وهو لابد خاض من قبل كثيرا من المعارك .

والجنرال جياب قائد الثوار يبدو هزيلا ضعيفا .. وسترته قديمة وليس على صدره اية أوسمة وهو يبدو فى الصورة غلبان كعساكر البوليس .

انه الآن وبعد أن شاهد صورته متفائل بالنتيجة . وهل هناك شك فى انتصار الفرنسيين . وآه لو انتصروا ، اذ لاستطاع الفهلوى فى نهاية الحرب أن يستبدل كل النقود التى معه بعملة مصرية .. وهى تساوى عندئذ نصف مليون جنيه . وسيهجر العمل طبعا .. وسيجرب لأول مرة فى حياته عيشة الأثرياء العجائز الذين كانت تحملهم البواخر الى الميناء قبل الحرب .

ولكن لو خسر الفرنسيون الحرب ! مش معقول !!!

ولكنه خاطر كئيب أحيانا يطوف بنفس الفهلوى فيزعجه ويحيل حياته الى جحيم .

فانهم لو خسروا الحرب ... لخرج الفهلوى من الصفقة عاريا كما كان . ولعاد من جديد الى الميناء يصعد على ظهر البواخر يبيع سورا تذكارية ، ويخرج الكتكوت من البيضة .. وينشل جيوب الخوجات .

فهو وان كان واثقا من نتيجة المعركة الا ان هذا الشعور الغريب احيانا يعتريه عندما يصعد على ظهر باخرة مستشفى قادمة من تلك البلاد التى تدور فيها الحرب . وفى بطن السفينة كان يشهد المأساة بعينيه . مئات من الجنود الجرحى فقدوا اعز اجزائهم وناموا فى ذهول ، بعضهم فقد الشعور ، وبعضهم فقد نور عينيه . وكان يعجب لأن اغلب الجرحى ليسوا من الفرنسيين .. هم فى الغالب سود من الصومال أو سمر من شمال أفريقيا . وكانوا يصعبون عليه ، وأحيانا كثيرة ساعد بعضهم على الهرب لقاء بضعة جنيهات من عملة الهند الصينية .

ومرة انتاب الفهلوى الذعر ، حين تقهقر الفرنسيون فجأة ... وتقهقر معهم سعر الجنيه الهندوشين . ولم يغمض للفهلوى جفن الا عندما صمد الفرنسيون واستعادوا مراكزهم . كانت محنة ولكنها علمته اشياء كثيرة . فتقهقر الفرنسيين شيء مزعج حقا .. ولكنه مفيد فى الوقت نفسه ، اذ انه يساعد على مد أجل الحرب .

ولكن فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان أبدا . فقد جاءت الانباء من بعيد بانسحاب الفرنسيين انسحابا طويلا متواصلا تاركين خلفهم عشرات المدن وملايين الأفدنة وآلاف القتلى والجرحى .

وظل الفهلوى أياما طويلة متفائلا بالنتيجة ... صابرا على المحنة ، والصبر طيب . ولكن كل يوم يمر كان يخيب ظنه فى فرنسا .

وجاءت اللحظات الحاسمة فى تاريخ عبيد وتاريخ الحرب فى الهند الصينية . وبرز الى الوجود اسم قلعة ديان بيان فو . واصبح هذا الاسم جزءا من حياة الفهلوى . واكثر من خناقة عنيفة نشبت بينه وبين بعض التلاميذ من مدرسة بور سعيد .. الذين يتحمسون للثوار ويتمنون لهم النصر !! مغفلون هؤلاء الأطفال لا يدركون عظم المصيبة التى ستحط على راس الفهلوى لو حدث ما يتمنوه . واصبح الفهلوى حاد المزاج . يضرب الناس لاتفه سبب ، ويقلب مائدة الطعام بلا سبب ويصفع زوجته كل صباح عدة أقلام سخنين ... ويسب الدين والدنيا . ويبصق على حال الدنيا الذى لا يدوم لأحد . حتى ولا لفرنسا واصبح الفهلوى زبونا للصحف ، يقرأ انباء المعركة بشغف . ولم يعد يختلط بأحد .. أو يحتك بانسان . حتى عمله فى المراكب هجره فى انتظار نتيجة المعركة . وزوجته طلقها واستراح من وجهها النحس . واصبح شغله الشاغل كله .. الجنرال كاسترو .. الذى يحس نحوه حنينا عجيبا . والجنرال جياب الذى يود من صميم فؤاده لو تتيح له الأيام فرصة صفعه على قفاه .

وجاءه النبأ الرهيب بعد أيام ، فقد انتصر الثوار وخسر الفرنسيون المعركة . وخسر هو كل ما عنده من نقود .. فلم تعد تساوى ثمن الحبر الذى طبعت به . وتهاوى الفهلوى تحت عظم الصدمة فمرض واصفر لونه واستبد به الهزال ... ثم اصيب بالشلل فلم يعد قادرا على الحركة .

وأيام طويلة كئيبة بائسة مرت عليه وهو يفكر عميقا فى المأساة . **ويكاد يفقد عقله وهو يتساءل فى ذهول : كيف هزمت فرنسا ؟**

وكان احيانا يخرج من بحثه الطويل بسبب يرضيه . لابد انها ارادة الله . فقد عصت فرنسا تعاليمه . وهو يعلم تماما انها بلد المساخر . وانها بؤرة الرذيلة والشيطان .

شيء واحد فقط لم يستطع تعليله على الاطلاق .

كيف هزم الجنرال كاسترو .. وهو الذى يحمل على صدره كل هذه المجموعة الهائلة من النياشين .

وكيف انتصر الجنرال جياب ... وهو فى بذلته الحقيرة ، وليس على صـــدره اثر لنيشان ... ويبدو فى الصورة غلبانا كعساكر البوليس ... لابد انها حكمة الله !!!